حراء

مجلة علمية ثقافية أدبية

www.hiragate.com

دورية تصدر كل شهرين

السنة الرابعة عشرة / (نوفمبر - ديسمبر) ٢٠١٨

69

Hira Magazine | Knowledge - Cultural - Literary | November - December 2018

مناجاة قلب

إلى الملكوتِ تنظرُ في أنّاةِ
وتلتقطُ المعانيَ طيّباتِ
فتُهدِي للمَدى فكرًا نقيًّا
وحسًّا راقيًا حلوَ السّماتِ
صلاحُك أنتَ للدنيا صلاحٌ
ولونُك أنت لونٌ للحياةِ

***

٢ حوار مع النفس
فتح الله كولن

٢٤ أساسيات النموذج الأخلاقي في التعليم
د. ألسكندر سكوت

٤٠ ماذا نفعل عندما يغار أطفالنا؟
أ.د. بركات محمد مراد

القيمة الإنسانية

"أيتها النفس! تَفَلَّتِي من مشاعر الخريف، وصِيري نَضِرة خضراء حتى تطير في محيطكِ الطيورُ والعصافير، وكُوني منبعًا للماء حتى يُهرَع نحوكِ كلُّ محروقي الفؤاد، وذوبي مثل الشمعة وانشري فيما حواليكِ الأنوار".. بهذه العبارات يستهل الأستاذ "فتح الله كولن" مقاله الرئيس "حوار مع النفس" في مفتتح هذا العدد.. يدعو النفس البشرية لأن تكون في كل حالاتها منشغلة بمشاعر الإحسان وترجمانًا للخير والجمال، مؤكدًا على أن الأقدام التي تسير في طريق الخير والفضيلة لهي أسمى من الهامات، وأن القلوب النابضة بمشاعر الإحسان توازي الكعبة في قداستها.. ثم يحث النفس على أن تزيد من سرعتها في سيرها على الخط الإنساني، مبينًا أن الحاجة إلى مثل هذا الجهد في عالمنا الذي تآكلت فيه القيم الإنسانية، توازي الحاجة إلى الماء والهواء.

ما هي فوائد الألم؟ وهل الألم كله ضرر، أم له وجه آخر مضيء يمكن الانتفاع به؟ ما هي علاقة الألم بعديد من الفضائل الاجتماعية والفردية؟ وغيرها من الأسئلة المهمة يحاول "محمد السقا عيد" الإجابة عنها بطريقة سلسة بسيطة في مقاله "الألم صفارة الإنذار".

وفي مقاله الموسوم بـ"قصة الحمام في تاريخ الإنسان" يتحدث "نور الدين صواش" عن قصة الحمام مع الإنسان ومع الحب والسلام، فيسرد -من خلال أمثلة لافتة- الارتباط القوي الذي قام على الثقة والاعتماد بين هذا الطائر والإنسان منذ آلاف السنين.

ومن الحوار مع النفس إلى "المشترك الإنساني وثقافة الحوار" مع الآخر، يأخذنا الشيخ العلامة "عبد الله بن بيه" إلى عالم يشدد على وحدة النوع والمساواة في الكرامة الإنسانية، ويدعو إلى البحث عن تنمية المشتركات ونبذ معايير التفاضل بالخير والجمال والفضيلة.

أما "ناصر أحمد سنه" فيتناول موضوعًا شغل عقول كثير من العلماء والباحثين والفنانين على مدار ٢٤٠٠ سنة، ألا وهو "النسبة الذهبية" التي اعتبرها من أهم أسرار الجمال والمتعة البصرية المبثوثة في مفردات الكون.

وهل يمكن للحوار وقبول الآخر أن يتحقق دون تربية الإنسان وتعليمه؟ هذا ما يجيب عنه "ألكسندر سكوت" في مقاله "أساسيات النموذج الأخلاقي في التعليم"، ممثلاً ذلك بمشروع الخدمة وأفكار الأستاذ فتح الله كولن التربوية والتعليمية.

وفي مقاله "كيف تكون غالب أفكاري صحيحة؟" يقف "الشريف حاتم العوني" على موضوع الفكرة الخاطئة والفكرة الصحيحة، مبينًا أن الفكرة الصحيحة تُنتج أفكارًا صحيحة، أما الفكرة الخاطئة لا تقتصر على إنتاج الأفكار الخاطئة فحسب، بل وتهدم الأفكار الصحيحة أيضًا. و"بركات محمد مراد" في مقاله "ماذا نفعل عندما يغار أطفالنا؟" يعالج الغيرة عند الأطفال، ويبين أسبابها وطرق علاجها.

وأما "الحبيب علي الجفري" فيتناول قضية "القيم الإنسانية وضابط الدين" حيث يدور حديثه حول نظرة الرسول ﷺ للوجود، وحول ثوابت القيم الإنسانية، وحاجة هذه القيم إلى ضابط الدين، وغيرها من القضايا التي تهم الإنسان والإنسانية أجمع في عالم اليوم.

إلى جانب مقالات قيمة أخرى لأحمد الصغير، وأحمد أبو زيد، وصالح القاضي، وصفاء الدين محمد، والعربي السيد عمران، وعائشة بنت عبد الله علواني، وبولات خاص، وصلاح عبد الستار الشهاوي، ندعو قرّاءنا الأعزاء إلى الاستمتاع بها، والاغتراف من معين هذه المأدبة الغنية بالرؤى والأفكار المتنوعة. والله ولي التوفيق والسداد. ■

المحتويات

حوار مع النفس / فتح الله كولن (المقال الرئيس)	٢
الألم صفارة الإنذار / د. محمد السقا عيد (علوم)	٦
قصة الحمام في تاريخ الإنسان / نور الدين صواش (تاريخ وحضارة)	٨
المشترك الإنساني وثقافة الحوار / الشيخ عبد الله بن بيه (قضايا فكرية)	١٢
النسبة الذهبية إيقاع الكون الجميل / د. ناصر أحمد سنه (علوم)	١٦
القدس في ذاكرة صاحب الأنس الجليل / أحمد أبو زيد (تاريخ وحضارة)	٢٠
أساسيات النموذج الأخلاقي في التعليم / د. ألسكندر سكوت (تربية)	٢٤
خلود اللحظة عند عاكف أرصوي ونجيب فاضل / د. أحمد الصغير (أدب)	٢٨
رجل يسبح دون أن يعرف السباحة / فتح الله كولن (قطوف)	٣٢
عندما يكون الخيال واقعًا.. الواقع الافتراضي / صالح القاضي (علوم)	٣٤
كيف تكون غالب أفكاري صحيحة / د. الشريف حاتم العوني (قضايا فكرية)	٣٨
ماذا نفعل عندما يغار أطفالنا؟ / أ.د. بركات محمد مراد (تربية)	٤٠
القيم الإنسانية وضابط الدين / الحبيب علي الجفري (قضايا فكرية)	٤٤
مفتاح العلوم اللغوية / صفاء الدين محمد (أدب)	٤٨
الحادي / العربي السيد عمران (شعر)	٥٢
منطق اللامنطق / عائشة بنت عبد الله علواني (قضايا فكرية)	٥٣
الرضاعة الطبيعية وتأثيرها على نفسية الطفل / د. بولات خاص (علوم)	٥٧
داود الأنطاكي قامة في علم الصيدلة / صلاح عبد الستار الشهاوي (تاريخ وحضارة)	٦٠

حوار مع النفس

أيتها النفس! تَفَلَّتي من مشاعر الخريف، وصِيري نَضِرة خضراء حتى تطير في محيطكِ الطيورُ والعصافير.. وكُوني منبعًا للماء حتى يُهرَع نحوكِ كلُّ محروقي الفؤاد.. وذوبي مثل الشمعة وانشري فيما حواليكِ الأنوار، انشريها إلى أن تسحري أولئك الذين يشاهدون البدر فيتركوا مشاهدته ويصبحوا فراشات في أجوائك.. وعانقي الناسَ بدفء وحنان كالأمهات حتى يلقي الذين يخافون سخطك بأنفسهم في حضنك دون تردد.. ووزِّعي نِعَمَ الله عليك إلى من حولك بسخاء، وزِّعيها فإن السخاء أشد المعادلات السرية تأثيرًا في القرب من الجنة ومن الله تعالى.. فإذا رسَّختِ هذه المعادلة في روحكِ وتطبَّعتِ بها واستخدمتِها، فإن أغلظ الأرواح التي دأبَتْ على مذهب الحقد والكراهية والعداء؛ سيصطفّون يومًا ما وهم يُشكّلون طوابيرَ منتظرين الدخول في أجوائك.

عليكِ أن تكوني مثل الغيوم، وتَحُولي دون حرارة الشمس الحارقة، وأن تكوني مثل الأمطار الغزيرة التي تهطل من دون تعلق بالمواسم فتُطفئ لهيبَ كل أحد وكل شيء.. وكوني -على الأقل- مثل رذاذٍ يُربّت على الحدائق والبساتين، والسفوح والرُّبا، والجبال والتلال.. فربّتي أنتِ أيضًا على القلوب والأرواح القاحلة، وكوني مَوردًا للماء العذب المفتوح لكل أحد، حتى يُسمَعَ دائمًا في فضاءاتكِ أصواتُ الأباريق والجِرَار، ولْتجدِ القلوبُ المحترقة بنار الحسرات ضالتَها في محيطكِ، ولْتَنْفَدْ مِداد أقلام صيادي الأقوال الحكيمة، ولتُصبحْ المشاعرُ الرائعةُ التي تتلون بها صحائف الكتب مزاميرَ الروحانيين كلما فتحتِ فاك لِتبوحي بإلهاماتِ روحِك.

ومهما شَحَذَ الغيظُ والغضبُ والحقدُ والكراهيةُ خناجرَهم وهاجموا كل من يلاقونه، ودمروا كل شيء، فلْتكوني أنتِ حاميةً حميمة لكلِّ من يلوذ بكِ ممن لا مكان لهم ولا مأوى، بمن فيهم تلك الأرواح الهائجة، ولا تخيّبي رجاءَ مَن يُهرَعون إلى وصايتكِ.

وكما هو الحالُ اليوم، فحتى في الأوقات التي يخرِّب فيها عفاريتُ الأفكار المتمردة كلَّ الطرق، ويهدمون

كل الجسور الجامعة بين أبناء أمتنا، عليكِ أن تبنِي -بما لديك من المحبة والتسامح وهيجان القلب- طُرُقًا وجسورًا معنويةً، وتحاولي الوصول إلى جميع النقاط التي تستطيعين الوصول إليها.. ولا تتعثري بالتعامل مع الآخرين بمثل ما عاملوك، وعليك أن تتصرفي بما تقتضيه طبيعة المسلم حتى ولو أفضى بكِ إلى الموت.. وأن تُحوِّلي ما تُرشَقين به من الحجارة إلى أنوار، وكأنك تُقدِّمين لمن حولكِ عُروضًا من الألعاب النارية، كشأن النيازك التي ترتطم بالغلاف الجوي فتتحول إلى أضواء.. وأن تليّنِي كلَّ ما يتصاعد حولك من الأصوات الصاخبة بحدَّة وشدة، فتصنعي منها باقاتٍ من المحبة، ولا تتفوَّهي قطعًا لا عن وعورة الطريق ولا عن انغلاق الجسور، حتى لا تُحرِّكي فيروسات الأحقاد الماضية وكراهيتها.

إن هذه الطريق هي طريق الأنبياء، وهي أَمْتَنُ جسرٍ للعبور إلى مستوى الإنسان الكامل.. إنها طريق لم تتعثر بأحد ممن ساروا عليها إلى يومنا، كما أنهم لم يغيروا موقفهم تجاه ما لاقوه من وقاحة أو فظاظة. والحقُّ أنه إذا كان الإنسانُ واعيًا بـ"إنسانيته"، فلن تؤثر أشكالُ الحقد والكراهية والوقاحة ولا غيرها من مظاهر الفَجاجة، على اتجاه تفكيره ولا مَواقفه.. وهذا ما ينبغي أن يكون.

صحيح أن هناك مسلمين يحيدون عن الطريق عندما يتعرضون لبعض الصدمات، إلا أن هؤلاء من الأرواح الفجة التي لم تهدأ أمواجُ مشاعرها وأفكارِها ولم تَصل إلى قرار ووقار، وإنني لا أتوقع من هذه الأرواح الهزيلة أن تنفع الآخرين بشيء.. وأمثال هؤلاء لم يخرجوا عن إصدار الصخب والضجيج تجاه مختلف الأحداث، وكأنهم طبولٌ تُقرَع، وهذا من أهم أسبابِ كثير من الشجار الواقع بين الناس في هذه الأيام.

إن الانمحاء والتواضع والحلم، هو حال دائم لدى الأشخاص الناضجين الوقورين. ومهما كانت الأوضاع، فإن أمثال هؤلاء في العمق مثل السماوات، وفي السعة مثل البحار، وفي الهيبة والرسوخ مثل الجبال الشوامخ، وفي التواضع مثل التراب؛ فلا هم يتأثرون بما يجري حولهم، ولا يتعكرون بمختلف الاختلاطات، ولا يرضخون للعواصف، بل يضعون وجوههم على الأرض ويحتضنون كل شيء وكلَّ أحد.. فهم كالذهب الذي

إن الذين يستعظمون أنفسهم، ويتوهمون امتلاكهم لقدرات خارقة، وينتظرون من كل أحد توجهًا إليهم والتفاتًا، ويقومون ويقعدون في حرص وتبختر، فسيكونون يومًا ما، ضحايا للاضطرابات الروحية ولو كانوا في طريق الطمأنينة والسلام.

ذاب وغلى وبلغ إلى صفاء الجوهر، فلو وُضعوا في أفران تُذيب الجرانيت لَمَا تغيرتْ طبيعتهم. لقد احترقوا وأصبحوا رمادًا، فلم يعودوا يتأثرون بأية نار، ولن يستسلموا لأية جمرة، وبالفعل فلن تجد من يتصدى لحرق الرماد وإذابة الذهب الخالص في البوتقات.

أيتها النفس! ينبغي لك أن تشعري في أعماق ضميرك بهموم كل أحد، بحيث لا يَتوقع أحد منك فوق ذلك، وأن تشعري بآلامهم في دواخلك وتبكي، بحيث تجف حيالها دموع العيون الباكية، وأن تتحرقي مِن أجْلهم حتى ينسى كلُّ المُعانين آلامَهم تجاه هذا الذي اكتوى كبده من المعاناة.

فالسعيد الذي اتخذ موقفه طبقًا لهذا الأفق، يُعتبَر مُدرِكًا -في نطاق شخصه- "ليلةَ قدرٍ" يتجلى فيها كلُّ أنواع الجمال التي تفوق حدود تصوره، ويُذْكَرُ في الأرض والسماء بمقام: "خليفة الله".

إن الطبيعة الإنسانية تحتوي على السرور والحزن معًا، فالذي يستطيع أن يَسجُن الحزن في قفص الإرادة، ويُطلقَ سراح حمامة السرور لتحلِّق إلى أقصى ما يمكن أن تطير إليه، هو الإنسان الكامل، وهو من جانبٍ "سجَّانٌ"، ومن جانبٍ آخرَ "مربِّي طيور"؛ يربط ما يربط ويسرِّح ما يسرِّح. أجل، إنَّ قَطْعَنا لصوت أهوائنا ونزواتنا باستخدام إرادتنا؛ بسالةٌ وإقدام، وفَتْحَنا لقلوبنا بحيث تسَع لتستضيف الجميعَ؛ شجاعةٌ ومروءة.

أيتها النفس! تَصرَّفي دائمًا بشجاعة، واحرصي على التحلي بالمروءة، واستخدمي وجدانك كالمحك في انتقاد ذاتكِ، وتبسَّمي في وجه الجميع بوجهك الشاحب المصفرّ وكأنه ذهبٌ تَصَفَّى في البَوتقات.. وإذ تتبسمين لكل أحد فحذارِ أن تُهملي التعامل معهم مثل صيرفيٍّ خِرّيت، فأنتِ بماهيتك مستعدةٌ لكل هذا، فأُولى

hiragate.com

مغامراتك في السماء أوضحُ دليل على ذلك، فبينما كانت الملائكة تهزّ مهدك وتترنم لك بتهويدات الغبطة والسرور؛ كانت الشياطين تقوم بدورِ "ضارب الناقوس" في مراسم الحسد. فمنذ أول أيامكِ لاقيت حسدًا رهيبًا إلى جانب ما وقع عليك من نظرات الإعجاب والتقدير؛ ولست أدري هل أصابتك العيون أم لا؟ ولكنْ أصابتْكِ حالة من التعثر وإن كنتِ قد حلَّقتِ في نهاية المطاف، ولمَّا مددتِ يدكِ إلى الشجرة المحظورة وأخطأتِ في اجتهادك حول تعيين وقت الإفطار -علمًا بأن هذا من باب سيئات المقربين- إذا بكِ تفتحين عينيك في سجن الدنيا.. لا، لا.. بل رأيتكِ في أحضان الأرض التي ستحتضن "حضرة أحمد". وقولُ الشاعر "محمد لطفي":

إن الحكمة الحقيقية للشجرة
هي قدوم حضرة محمد إلى الدنيا
يشير إلى أُولى الثمرات الحلوة لقَدَركِ الحامض.

أجل، إنكِ لو بقيتِ في الجنة لبقيتِ مثل شجرة غير مثمرة وغير قابلة للنمو. وما كان لك أن تشعري قط بما تملكينه من الثروة الكامنة، في حين أنك عندما فارقتِ الجنة ونصبتِ خيمتكِ في الدنيا، تحوَّلتْ هذه البلادُ المُترِبة المغبرَّة إلى بستان للورود، وأصبحتْ هذه الديار التي كانت منفاكِ، رياضًا وبساتين تترعرع بها الأنبياء والأولياء.. وأخيرًا تحولتْ غبطةُ الملائكة كليًا إلى تقدير وتبجيل، وعاد حسد الشياطين مثل حربةٍ خلصت إلى نحورهم هم.

والآن تعالَيْ، لتَضَعِي قِيَمكِ تحت الحماية، وتُرَكِّزِي على استثمار هذا المنفى -الذي يُعتبَر طريقًا للقرب من الله- على أحسن وجه، ولا تُحَوِّلي وسائلَ التقرب إلى الله، إلى أسباب للابتعاد عنه، ولا تفرّحي الشيطان الذي هو خصمكِ الأبدي بالوقوع في شِباك الكراهية والبغضاء والغيظ والحرص والحسد! ولو أنك أخطأتِ يومًا ما، ووقعت دون المستوى، فافعلي كما فعل النبي آدم عليه السلام؛ وانتصبي قائمة، واستفيقي واعترفي بجريمتك، وتوجهي نحو باب الحق المفتوح دائمًا، ولا تمنحي أخطاءَك حقّ الحياة ولو لدقيقة واحدة. وإذا كانت طبيعتكِ البشرية قد فسدتْ بالذنوب فأَحييها مرة أخرى بإكسير التوبة، واجعليها تقف على أقدامها لتعود إلى ربها بحماس جياش، وإذ تقومين بهذا كله فتذكري أن طبيعة كل البشرية مثلُ طبيعتكِ، وأنهم قد يقعون في مثل ما وقعتِ فيه من الأخطاء.. والْتَمِسِي المعاذير لكل المخطئين، بل إذا استطعتِ فأشفقي عليهم، لأنهم غُلبوا وانهزموا أمام نفوسهم، احتضنِيهم وساعِديهم.. وحذارِ أن تقفي من الآخرين موقف المحاسِب على ذنوبهم وتنشغلي بأخطاء هذا وذاك، وإن كان يروق لكِ الاهتمام بالأخطاء، فاستخدمي هوايتك هذه تجاه أخطائك أنت، حتى لا يُنسيَك "أدرانك الكبيرةَ" ما لدى العالمين من الأوساخ الصغيرة.

مُرِّي بالناس كلما مررتِ بهم مثل النسائم التي تحمل شذى الورود! ولْتَفُح رائحتكِ من الطرق التي تَمُرِّين بها عبقًا عبقًا، واحترقي مثل الشموع وذوبي، وأنيري الآخرين، ولكن لا تَنوطي هذه التضحية الكبرى بمصالحكِ الخاصة.. ودُوري مثل الدواليب وأطلقي الأنَّات، وأَطفِئي نيران جميع القلوب المحترقة، ولا تُفَكِّري بنفسكِ بتاتًا، واحترقي مثل المَبخرة شيئًا فشيئًا وبهدوء لتنشري فيما حولك الروائح الطيبة، ولكن لا تشتكي من حالك، وكوني ناكسة الرأس كل حين، ولا تجعلي ما حَباك به الحقُّ من الألطاف وسيلة للتفاخر تجاه الآخرين، بل اعتبري مثل هذه الألطاف بمثابة عربون يمنحه الله للمحتاجين، وكوني خجِلة بسبب أخذكِ الأجرة مقدَّمًا.. إنك إن ربطتِ جهودك وخدماتكِ بتوجه الآخرين من منطلق أنك تستحقين ذلك مقابل خدماتك وجهودك، فإنكِ ستبدئين بتوقع الالتفات منهم، وهذا داء عضالٌ مِن شأنه أن يُنفِّر عنكِ كل أحد، وإذا أصررت على ذلك فإنكِ ستتلقَّيْن كل يوم صفعاتٍ متتاليةً، على عكس ما كنتِ تتوقعين، وستُبَعِّدين عنك الناس.. وإن كنتِ تريدين راحة البال فهي في الاستغناء والتواضع والانمحاء والقناعة.. وأما الذين يستعظمون أنفسهم، ويتوهمون امتلاكهم لقدرات خارقة، وينتظرون من كل أحد توجهًا إليهم والتفاتًا، ويقومون ويقعدون في حرص وتبختر، فسيكونون يومًا ما، ضحايا للاضطرابات الروحية ولو كانوا في طريق الطمأنينة والسلام.

أيتها النفس! إن كنتِ جريئةً وجسورةً فعلاً، فابصقي في وجهِ ما في داخلك من العداء، واطردي الخذلان من بابك، ودُوسي على رأس الظلم، واقطعي أنفاس

hiragate.com

الوقاحة مُنطلقةً من الشعور بأنه تعالى حاضر في كل مكان.. واكبحي جماح نوازع الخطايا عن طريق الإيمان بالانتقام الإلهي، وحاولي ألاّ تسيري صوب تلبية غرائز النفس ونزواتها، بل سيري في طريق مرضاة الله تعالى، واستشعري دائمًا بأن الله رقيب عليك، واهتزي كما تهتز الأشجار، لتَنْفُضِي عنك كلَّ ما يُفسِد طبيعتكِ ويشوِّه منظرك، وما هو غريب عن روحك وعبءٌ على قلبكِ من أنواع الذنوب والخطايا والمعاصي، حتى تتناثر وتذهب عنكِ أبعدَ ما تكون.

ولا تنسَيْ أن كل ما ستبذلينه في سبيل التفلت من هذه الأمور التي تُغيِّر طبيعتكِ وتلوِّث روحكِ، ستُعتبر بمثابة الجهاد، وستقرِّبك من الله تعالى خطوة خطوة، وإلا فلا مفر لكِ من أن تبتعدي عنه دائمًا، وتعيشي أمرَّ حالات الغربة، وتغرقي مع المنبوذين في بحار الوحشة.. كما أن خانة الحسنات في دفتر أعمالك ستبقى فارغة، وأنك ستعيشين ظلامًا وقتامةً في حياتك القلبية والروحية، فاستعيدي نشاطك وانتعشي واستفيقي لتتبنَّي القيم الإنسانية، ولا تستعجلي ولا تتهوري حتى لا تجعلي فردوسَك المفقود هذه المرة، ضحيةً لِلَّامبالاة.

فكل ما تبذلينه اليوم من جهد في سبيل استرداد ما قد فقدتِ في السابق، سيعود إليك عندما يحين الموسم بعشرين أو ثلاثين من أضعافه، كشأن البذرة التي تُلقى في التراب ثم تعود سنبلة.. فإذا كان الأمر كذلك فلا تتوقفي أبدًا، بل انثري الخيرَ والفضيلةَ في كل الأنحاء مثلما تُنثر البذور، وأَزيلي صدأ المشاعر المتركزةِ على الخطايا، واجعلي السعادةَ الدنيوية والأخروية للآخرين هدفَ حياتك.. عيشي هكذا حتى تتحرري من سجن الحسابات والمنافع الشخصية القاتلةِ لروحك، ولْتعيشي أنتِ المتاعبَ دائمًا من توزيع الراحة على الآخرين، استمعي لهموم الناس، وعيشي همومهم، وإنّي أنينًا بالهموم، ولكن حاولي أن تعالجي همومهم، وافتحي صدركِ بالمحبة لجميع الناس، حتى يُهرع إلى دفئك "ضحايا النفس" الذين ظلموا أنفسهم بأنفسهم.

وامسحي وجهك بالأرض مثل الأنهار، وتدفَّقي بالحياة، وكوني مثل الشمس والقمر تحتضنين كلَّ شيء بنورِكِ وتربّتين على رؤوس كل شيء.. ولا تُخيّبي رجاءَ مَن يحسنون الظن بكِ فيتوجهون إليك متوقعين منك شيئًا، وكوني في الخدمة راكضة في مقدمة الصفوف، بينما تحاولين التَّخَفِّيَ في أواخر الأواخر عند توزيع الأجور، وابتعدي عن ربط ما يُعمل لأجل الله بالمصالح الدنيوية مثل ما تفرّين من العقرب والثعبان.. ولكن إن حصل لك انزلاق شعوري كهذا من دون إرادة منك، فاعتبري ذلك تلوّثًا في المشاعر، وعُدِّي مثل هذا التلوث ولو لدقيقة واحدة إهانةً لموقعك الإنساني المميز الذي تحرزينه بين الكائنات، واهرعي نحو مغتسَلٍ تُنَقّينَ فيه أدرانَ دواخلِكِ.

وكوني في كل حالاتك منشغلة بمشاعر الإحسان وترجمانًا للخير والجمال.. فالأقدام التي تسير في طريق الخير والفضيلة لهي أسمى من الهامات، كما أن القلوب التي تنبض بمشاعر الإحسان توازي الكعبة في قداستها.. والواقع أن ماهيتك كعبةٌ، وهدفُك هو رضا الحق، وطريقك مَطافٌ يدور فيه القُدسيون في اتجاه الوصول إلى الحق تعالى.. وما دمتِ متمسكة بخطكِ هذا، فستصبحين موضوع حديث المحاورات في ما وراء السماوات، وسيُذكَر اسمكِ مع الروحانيين. فزِيدي من سرعتك في سيركِ على الخط الإنساني، فإن حاجتنا إلى مثل هذه الجهود في هذا العالم الذي تآكلت فيه القيم الإنسانية، توازي حاجتنا إلى الماء والهواء.. ففكّري دائمًا بالخير، وتكلمي بالخير، واسعَيْ في أعمال الخير.

إن أحسن الحالات التي تبدو فيها الرايات هو عندما تكون محمولة على أكتافِ أناس يتحركون. والنحلُ يُعتبر مباركًا ما دام ينتج العسل، ومِشيةُ الفارس أكثرُ مهابةً من وقفته.. فقومي واحملي الراية مثل الأبطال، واملئي خليتك بالعسل مثل النحل، ولا تسقطي إلى مستوى الكُسالَى المكروهين.. وكوني دائمًا مستعدّة لتلقي الأوامر في خدمة الإنسانية، واستعدي للرحيل، فإن الرحيل محقّق ومقدّر مهما كان وقته مجهولاً، فكوني على استعداد تام وتطهّري من الذنوب، وافتحي الباب لنداء الغيب، وكوني على أهبة الاستعداد. ■

(*) نشر هذا المقال في مجلة "سيزنتي" التركية تحت عنوان: Bir Sorgulama، العدد: ٢٥٢ (يناير ٢٠٠٠). الترجمة عن التركية: أجير أشيوك.

hiragate.com

د. محمد السقا عيد*

إذا طلب الإنسانُ العلم بجدٍّ، وأتبعه ببحث معمَّق، وواظب على البحث بإلحاح، وعمَّق ذلك بالعبادة العملية.. وصل إلى الإيمان الحقيقي.

الموازين

الألم صفارة الإنذار

حمل ثقيل لا يكاد يفارقنا، نغلبه أحيانًا ويغلبنا أخرى.. قد يضعفنا تارة، ويقوينا تارة أخرى.. ننساه أو نتناساه، لا يرى فيه بعضنا إلا نقصًا وتنغيصًا ومرارة، ويرى آخرون فيه امتحانًا واصطفاء، بل يخبرنا بعضهم عن حلاوة مخبأة تحت تلك المرارة؛ إنه الألم قرين الحياة الذي نعرف منه وننكر.. ومن ذا الذي لم يذقه ويكتوي بناره؟

صرخة يستهل بها كل قادم لهذه الحياة.. نكبر ساعة بعد ساعة ويكبر معنا الألم بصوره وأصنافه وأسبابه؛ مغص مؤلم بالبطن يبكينا، الجوع والبرد، المرض والمجهول، الوحدة والشوق، تَخوفنا من غير المألوف، بكاؤنا بسبب وبلا سبب.

نكبر ويكبر معنا الألم، ويكبر فهمنا له، وسرعان ما نكتشف -بألم- أن لكل لذة ورغبة حد، وأننا مهما بكينا وطلبنا لن نحصل على كل ما نشتهي ونريد.

الألم نعمة حقيقية تسري في شبكة من الأعصاب تصل إلى أطراف أصابع الإنسان، تحميه من أي خطر قد يتعرض له من حوله أو من داخله. فالألم هو الذي يدفعك لأن ترفع يدك من على سطح ساخن فلا تعاود فعلتها مرة أخرى، إذ إن نبضة الألم التي سرت من أصابعك إلى قشرة مخك ستترك بصمتها هناك للذكرى التي ستحفظك بعيدًا تمامًا عن النار ما دمت في وعيك. قد يكون الألم هو أول من يعلن عن التهاب زائدتك الدودية قبل انفجارها، فتتمكن من استئصال الشرر قبل اجتياحه للهشيم.

غالبية الناس أو كلهم يكرهون الألم ويهربون منه إلى

حياة المتعة والفرح، ولكن ينبغي ألاّ ننكر أن للألم فوائد كثيرة؛ للشخص المتألم، وللمحيطين به، وللعلم وللعالم كله.. ذلك أن النفس تكون أكثر شفافية وحساسية في حالة الألم منها في حالات البهجة واللهو أو المتعة، كما أن الألم دليل على الحساسية والحياة، فالعضو الميت لا يحس ألمًا، أما الحي فإنه يشعر بالألم.

ما هي فوائد الألم التي لولاها ما سمح الله بالألم؟ وهل الألم كله ضرر، أم له وجه آخر مضيء يمكن الانتفاع به؟ وما هي علاقة الألم بعديد من الفضائل الاجتماعية والخاصة؟ هذا ما نود أن نتحدث عنه في هذه السطور.

يختلف كل إنسان عن غيره في الإحساس بالألم، كما أن بعض أعضاء الجسم مثل الوجه والفم واليدين، تكون أكثر إحساسًا بالألم من غيرها. فقد نجد شخصين أصيبا بشكة دبوس، أحدهما يصرخ والآخر لا يحرك ساكنًا.

هل الألم شر؟

إن النظرة العجلى والتفكير السطحي يمكن أن يسلما إلى إجابة متسرعة، وهي أن الألم -فعلاً- شر خالص، لكن النظرة المتأنية والتفكير العميق -بتقليب الأمور على جميع أوجهها والبحث عن الحقيقة من جميع وجوهها- يثبتان عكس ذلك، فالله ﷻ هو خالق كل شيء، والألم شيء من الأشياء، ومن صفاته سبحانه أنه حكيم خبير لا يخلق الشيء عبثًا من دون نفع أو جدوى، إذن ثمة منفعة من ورائه للبشر علمها مَن علمها وجهلها مَن جهلها، وما علينا إلا أن نتريث ونتأمل هذه الآلام، وندرسها بشيء من المثابرة والتعمق، لنعرف ثمارها وفوائدها أو الحكمة منها.

إن الألم لا يمكن وصفه في كلمات، ولكنه شعور بالمضض لا يدركه إلا من يكابده، ولا يشعر به إلا من يعانيه. فمهما حاولتَ أن تصف آلام قرحة المعدة لمن لم يجربها، فإنك لن تفلح في ذلك بأي حال من الأحوال، وهل تستطيع أن تصف نور الشمس لمن فقد نعمة الإبصار؟

قد يصاب الإنسان منا بالتهاب في مصرانه الأعور فيكون الألم هو النذير بالخطر، ولولا نعمة الألم لانفجر المصران في بطنه دون أن يدري ولأورده موارد التهلكة دون أن يعرف مصدر الهلاك، ولكن الألم يدلنا على موضع الداء ويجعلنا نتدخل بالمشرط في الوقت المناسب قبل حدوث ما لا يحمد عقباه.

فالألم صفارة الإنذار، يحميك من غارات المغيرين، فإذا ما لاح الخطر من بعيد فإنه يجلجل بقوة ويدق نواقيسه بعزم من حديد، ويفصح عن مكان العلة والداء بلا توقف أو إبطاء، ولولاه لاغتالتنا الآفات والأمراض. وهذا هو سر انتشار الأمراض الخبيثة التي لا تنذر صاحبها بالألم، عندئذ لا تنفع مهارة الجراح ولا فنه ويصير الإنسان إلى الهلاك لا محالة.

فحمدًا للآلام وخالق الآلام، وهنيئًا للجراح المحنك الذي يتدخل بمشرطه في الوقت المناسب وينهي تلك الآلام التي طالما أرَّقت صاحبها وحرمته لذة المأكل والمشرب.

الألم هزة توقظ النائم، وتنبه الغافل، وترشد التائه، وتدل الحيران.. فهو رحمة من الله، نفهمها أحيانًا، ونجهلها أحايين أخرى، فكم من مرض عضال عرَّف صاحبه حقيقة الحياة فبدأ يفرح بحياته في يومه وساعته ولحظته، ولقد كان في أمسه مخدوعًا بوعود السعادة المؤجلة التي أضاع فيها سابق عمره، وكم من مصيبة أو فراق مؤلم أيقظ صاحبه مِن وهمه، وكشف زيف بعض مَن حوله، فعرف به عدوه من صديقه.

والألم تربية للنفس وصقل للمشاعر وتعميق للإنسانية، ومن لا يعرف الألم لا يدرك خفايا النفس ولا يحيط بجوانب الحياة.

إن الألم نعمة تستوجب الشكر، فلولا الألم لما علم المرضى بمرضهم، ولربما فقدوا حياتهم نتيجة لدائهم الصامت. ومن الناحية المعنوية أيضًا، فلو لم نذق مرارة الألم لما علمنا حلاوة الراحة، ولباتت حياتنا لوحة باهتة، ولفقدنا عبادة الشكر لعدم شعورنا بالنعم التي أكرمنا الله بها. ■

(*) استشاري في طب وجراحة العيون / مصر.

hiragate.com

نور الدين صواش*

قصة الحمام في تاريخ الإنسان

منذ آلاف السنين والحمام يرمز إلى الحب والسلام. ولكن ما السر في ذلك؟ ولماذا الحمام بالأخص؟

يحكى أن ملِكين خرجا للحرب متخاصمين.. وقبل وقوع المعركة أمر أحد الملكين بإحضار سلاحه وخوذته، فأخبره الجنود أن حمامةً بيضاء بنت عشها داخل خوذته والخوذة فوق سلاحه، فأبى أن يؤذيها ويزعجها مع فراخها ويخرّب بيتها، فتركها وانطلق إلى ميدان المعركة دون عتاد حرب.. عندما رأى الملك الآخر خصمه بلا سلاح، دفعه الفضول إلى معرفة السبب، فدعاه إلى التفاوض والمناقشة، وحين علم أنه خاطر بنفسه وتخلى عن خوذته وسلاحه رحمةً بحمامة، عدَل عن الحرب وأبرم اتفاقية سلام معه. ومنذ ذلك الحين ظلت الحمامة البيضاء رمز السلام والحب.

وبعد الطوفان الذي غمر الأرض، كان النبي نوح عليه السلام يُرسل حمامة بين الحين والآخر لتتفقد الأحوال وتأتي له ببشارة ظهور اليابسة، وذات مرة عادت الحمامة إليه حاملة بمنقارها غصن شجرة

زيتون، ما يعني أن الأشجار بدأت تظهر، ففرح عليه السلام فرحًا وكافأ الحمامة لقاء خبرها هذا.. وبذلك اقترنت الحمامة الحاملة بمنقارها غصن شجرة الزيتون، بالحب والسلام.

وظلت الحمامة رمزًا للحب والسلام عند اليونان في القدم أيضًا، إذ دأبت أساطيرهم على تصوير "أفروديت" مع حمامات تطير حولها، كما أشارت هذه الأساطير أن بنات أفروديت وشقيقاتها السبع، كانت سربًا من الحمامات، ما دلّ على أن الحمامة في تلك العصور كانت وثيقة الصلة بالحب والصفاء والنقاء. وأيضًا صوّرت الأساطير الهندية آلهة الحب وهي تطير على ظهر حمامة. كما وُجدت نقوش لحمامات على الآثار المصرية القديمة، وكان المصريون يربّون الحمام في أبراج من الفخار والطين، وما زالت هذه الأبراج مستعملة حتى يومنا في قرى مصر الحديثة.. بالإضافة إلى أن المصريين عبّروا عن علاقتهم الحميمة بالطيور عامة وبالحمام خاصة عن طريق رسمها على جدران معابدهم ومقابرهم، بل واتخذوا من الطيور رموزًا للكتابة الهيروغليفية؛ فرمَز طائر السمّان عندهم -مثلاً- إلى حرف "و"، والبوم إلى حرف "م"، والصقر إلى حرف "ح".

ثم إن الحمامة قامت بدور مهم في حماية سيدنا محمد ﷺ من المشركين وتأمين سلامته عندما أوى وأبا بكر الصديق رضي الله عنه إلى غار ثور إبان هجرتهما إلى المدينة المنورة، مما عظّم من شأن الحمامة وجعلها رمزًا للحب والسلام عند المسلمين أيضًا.

كما اهتم فنانو القرون الأخيرة بالحمامة وتناولوها في رسوماتهم بكثرة لدلالتها على السلام؛ فمثلاً، كانت الحمامة حاضرة في معظم رسومات بيكاسو، حيث ظل يرسمها عقودًا متتالية في لوحاته بأساليب وتقنيات مختلفة. وكانت لوحته التي رسم فيها حمامة تحمل بمنقارها غصن شجرة الزيتون، شعارًا للسلام في مؤتمر السلام العالمي الذي نُظِّم في باريس عاصمة فرنسا عام ١٩٤٩م، وتحولت الحمامة بعد هذا التاريخ إلى رمز عالمي للسلام في عالم اليوم.

حمامٌ ينقل رسائل مهمة للإنسان

لا جرم أن هذا الارتباط أنشأ علاقة قوية تقوم على الثقة والاعتماد بين الحمام والإنسان.. حيث سعى الإنسان

إلى استخدام نوع الحمام الزاجل كوسيلة للمراسلات ونقل الأخبار بين المواطن والأصقاع، أو كبريد سريع يحمل أخبارًا ومعلومات غاية في السرية إلى أماكن مختلفة.. بل واستخدمه لأغراض خاصة تتمثل في قصة أحد السلاطين في إفريقيا عندما اشتهى فاكهة الكرز اللبناني؛ فأمر أعوانه بإحضار هذه الفاكهة بأسرع وقت ممكن، وبعد تفكير طويل اهتدى القوم إلى الحمام الزاجل في تنفيذ هذه المهمة، فكتبوا ذلك للمعنيين في بلاد الكرز وبعثوا الرسالة مع الحمام الزاجل يطلبون منهم أن يضعوا كل حبة كرزٍ في كيس صغير ثم يحمّلوا كل حمام كيسًا من هذه الأكياس لتتجه به إلى مملكة السلطان، فنفذوا ما قيل وتمت المهمة بنجاح.

كانت العرب أول من استخدم الحمام الزاجل في حمل الرسائل في القرن الثاني الهجري، حيث ورد في كتب التاريخ أن أول من عرف استخدام هذا الحمام، أهلُ الموصل. وكذلك استُخدم الحمام الزاجل في عهد الأمويين والعباسيين في نقل الأخبار بين بغداد ودمشق وحلب والإسكندرية وشتى الأراضي التابعة لحكمهم.. ونتج عن ذلك أنْ أسسوا للحمام الزاجل ديوانًا خاصًّا تابعًا لديوان البريد، له موظفون وسجلات.

ولكن كيف استطاع الحمام الزاجل أن يهتدي إلى طريقه الصحيح دون خطأ أثناء مهمته؟ وكيف كان يدرّبه الإنسان لنقل الرسائل؟

كيف يُدرَّب الحمام الزاجل؟

قام العلماء والباحثون بدراسات عميقة حول الحمام

hiragate.com

الزاجل، فوجدوا أنه يهتدي إلى طريقه بواسطة بوصلة كيميائية في رأسه تعتمد على قوة الملاحظة والذاكرة البيئية، وبالتالي لاحظوا أن هذا الحمام طائر يرتبط بشدة بموطنه وبيئته التي يعيش فيها.

أما أساليب التدريب لهذا الطائر فمتعددة، منها أنهم كانوا يختارون من العش -الذي فيه بيض وفراخ- واحدة من الحمامات المفرخة، ثم يأخذونها معهم إلى المنطقة التي يريدون أن ترجع منه، فيقومون بربط ورقة صغيرة في رجلها ويطلقونها إلى الفضاء، فتعود إلى عشها بسرعة منقطعة النظير.

وأما الطريقة الأخرى والأدق، هي أنه بعدما يكمل الحمام الزاجل الخمسة أسابيع من عمره، تبدأ مرحلة تدريبه على الطيران؛ يُترك جائعًا أثناء ذلك ويكون التدريب أقل من ساعة في بداياته، إذ يتم تعويد الحمام على الطريق من خلال إشارات توصله إلى قفصه وقتَ التغذية، ويُدرَّب على الطيران في اليوم الواحد مرتين على الأقل، وتستمر عملية التدريب هذه من ستة إلى ثمانية أسابيع ليتمكن الحمام من معرفة البيئة والمحيط جيدًا، ثم يتم تطويل المسافة تدريجيًّا.. توضع حمامات عديدة في قفص خاص قبل إرسالها إلى المهمة، ثم تؤخذ إلى مكان يبعد عن مسكنها بكيلومترين، ثم تطلق الواحدة بعد الأخرى، وبعد أيام يعود المدرّبون ليأخذوا الحمامات إلى مسافة أبعد من ذي قبل تبلغ أربعة كيلومترات، ثم سبعة كيلومترات وهكذا، ثم تُزوَّد المسافة حتى تصل إلى ٢٠٠ كم. علمًا بأن الحمام الزاجل يقدر على قطع مسافة تتراوح بين ١٢٨-١٠٠٠ كم تقريبًا في اليوم الواحد وبسرعة تزيد على ١٠٠ كم تقريبًا في الساعة الواحدة. والغاية الأخرى من كثافة هذا التدريب، هو تقوية عضلات الحمام الزاجل وتنشيط أعضاء جسمه لاجتياز المسافات الطويلة، وتقوية ذاكرته، وتعويده على الطيران. هذا ويتميز الحمام الزاجل بحب مدربه وطاعته له، وسرعته في التعلم، وقلّة الأكل والشرب.

قصور الحمام

ولجمال هذا الحمام وألفته، ولرمزيته للحب والنقاء والرحمة والسلام، أبدى العثمانيون اهتمامًا كبيرًا به، حيث تبوأ المكانة المرموقة في شتى نواحي حياتهم فنًّا وثقافة وعادات وتقاليد. فجَرت العادة لدى أبناء هذه الحضارة وفنانيها ومهندسيها، على إلحاق مجسمات قصور صغيرة -لم يكن لها مثيل في التاريخ- بالواجهات الخارجية للمساجد والمدارس والخانات والمكتبات والجسور والقصور والمنازل، لتسكنها الطيور الآهلة من العصافير والسنونو والحمام آمنة مطمئنة على نفسها.

كانت هذه القصور المصغرة تبنى من الطوب الأحمر أو القرميد أو الحجارة أو الرخام أو الطين، وكانت بمثابة بصمة للمهندس المعماري ينقشها على المبنى أو يركّبها على الجدار بحرفية منقطعة النظير. ولكن ما الغاية من ذلك؟ لعل الغاية هي رغبة المعماري بتذكير الناس بالعلاقة الوثيقة بين العبادة والرحمة، أو الارتباط القوي بين الحياة والحب، ومن ثم التأكيد على ضرورة إعمار الأرض بلبنات الحب والرحمة والسلام، وإقامة محاسن الأخلاق بمد العون إلى الضعفاء والمحتاجين من المخلوقات كافة.. وكل ذلك أنجزوه من خلال بناء هذه القصور الصغيرة والتحف الفنية البديعة، وإيواء طيور السلام والمحبة فيها.

كثيرًا ما كانت توضع هذه القصور في أماكن عالية وآمنة من جدران المباني، وخاصة في الأماكن المشمسة والنائية عن مجرى الرياح والعواصف، لتشعر الطيور اللاجئة إليها بالأمان، وتطمئن على حياتها من الحيوانات

المفترسة. ثم بواسطة هذه التحف الفنية، يتمكن الطير من إيجاد الطعام الذي يوضع له بانتظام كل يوم، ثم حماية نفسه من قسوة البرد في الشتاء أو شدة الحرارة في الصيف، فضلاً عن إسهام هذه القصور في منع فضلات الطيور من تلويث جدران المباني ومن تآكل أحجارها.

انتشرت هذه القصور ما بين القرن الخامس عشر والتاسع عشر الميلادي في مدن عديدة من المملكة العثمانية، ولا تزال آثار هذه البصمات الإنسانية موجودة حتى الآن في إسطنبول، وبورصة، وأدرنه، وتوكات، وأنطاكية، وآماسيا، وقيصري وغيرها من مدن تركيا الحديثة، ولكن أشهرها الكائنة على جدران المساجد الكبيرة بإسطنبول كمسجد السليمانية، ومسجد عتيق علي باشا، ومسجد السلطان أحمد، ومسجد آيازما في منطقة أسكودار الذي بني عليه سبعة عشر منزلاً للطيور.

لا شك أن القصور الفنية هذه، تشير إلى عمق خيال المعماري وبراعته الفنية ورهافة حسه وذوقه الرفيع في التزيين والزخرفة. سميت هذه القصور بأسماء مختلفة، منها قصر السنونو، وقصر الحمام، وقصر العصافير.. فكان معظمها يحتوي على عدة طوابق، تضم المشربيات، والشرفات، والنوافذ المقوسة، والسقوف، والقبب، وأحواض الماء الداخلية، بل وسلالم هبوط وإقلاع تسهِّل دخول وخروج الطيور إليها.. كل ذلك يدل على أن هذه التحف المعمارية الظريفة لم تكن شكلية فحسب، إنما تجاوزت ذلك لتؤكد براعة المعماري في الفن، وخياله الواسع في الزخرفة والتزيين.

إن المجسمات الأولى لقصور الطيور في الحضارة العثمانية كانت في مدينة بورصة، ولكن بسبب الإهمال، لم يصل إلينا إلا ما وُجد على جدران مسجد أمير سلطان، والمسجد الأخضر. إن النقوش والزخارف والتصاميم البديعة في هذه القصور، دفع أهل إسطنبول لأن يسمونها بـ"بيوت الخيال"، ووفقًا للمصادر، فإن أجمل هذه القصور كانت في منطقة أسكودار بإسطنبول. ويمكن كذلك أن نرى هذه التحف المتقَنة في جامع أيوب سلطان بإسطنبول على جدار جبهة المحراب.

وأما أقدم هذه القصور الصغيرة في إسطنبول، فتوجد في جامع بالي باشا الذي بني عام ١٥٠٤. وقد نلاحظ قصورًا للطيور في جدار مدرسة فيض الله أفندي المطل على الشارع الرئيس بإسطنبول، والتي أصبحت فيما بعد مكتبة سميت "فاتح مِلَّتْ"

وكذلك نجد هذه القصور مبنية على أضرحة سلاطين آل عثمان، مثل القصر الكائن على جدران ضريحي السلطان مصطفى الثالث، والسلطان سليم الثالث في حي لاللي بإسطنبول، حيث تم بناؤه على الطراز الباروكي، ويتكون من طابقين مزودين بـ١٦ نافذة، رُكِّب عليه ثلاث قباب، مما أضفى عليه جمالاً يسرُّ الناظرين ويدفع العقول إلى التفكر والتأمل بجماليات صنع الخلق لتصل إلى صنع الخالق البديع.

وهل كان الاهتمام بالحمام والطيور حبيس الماضي؟ بالطبع لا.. فثمة أناس كثر في يومنا هذا ما زالوا مهتمين بالحمام خاصة وبالطيور عامة، يعتنون بها ويربونها في منازلهم، وحدائقهم، وغيرها من الأماكن.. ما زالوا يتفننون بصناعة البيوت للحمام والطيور، ولكن بطريقة عصرية مختلفة عما قبل. ولا ينحصر هذا الاهتمام ببلد أو منطقة بعينها، بل انتشر في شتى بلاد عالم اليوم. ■

(*) كاتب وباحث تركي.

المرجع

(1) https://spiritualray.com/why-is-dove-symbol-of-peace-love

الشيخ عبد الله بن بيه*

المشترك الإنساني وثقافة الحوار(١)

إن لدى الإنسانية مشتركات كثيرة أدَّى تجاهلها وإذكاء الخصوصيات تجاهها، إلى كثير من الحروب والدمار وإلى ابتعاد البشرية عن القيم التي أرساها الأنبياء؛ قيم الخير والمحبة والتراحم.

وتكون هذه المشتركات على مستويات مختلفة، منها مشتركات على مستوى الدين الواحد، ومنها مشتركات على مستوى الديانات، ومشتركات عليا يجتمع فيها جميع البشر تتجسد في القيم الإنسانية التي تجمع عليها البشرية بدياناتها المختلفة وفلسفاتها الكونية المتنوعة. وإن تفعيل هذه الدوائر والوصل بينها في تناغم وانسجام، من شأنه أن يرأب الصدع ويزيل سوء الفهم ويخفِّف من غلواء الاختلاف.

إننا أمام فشل حضاري يحطُّ من قيمة الإنسان، فما جدوى أن يغزو الإنسان الفضاء ويبلغ أقصى الكواكب وهو عاجز عن التفاهم مع أخيه ونظيره ومثيله!

مكانة الآخر في الإسلام

إن الآخر في رؤية الإسلام هو الأخُ الذي يشترك معك في المعتقد أو يجتمع معك في الإنسانية. ويتجلى هذا بسُمُوٍّ في تقديم الإسلام الكرامةَ الإنسانية بوصفها أول مشترك إنساني، لأن البشر جميعًا على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم ومعتقداتهم، كرمهم الله ﷻ بنفخة من روحه في أبيهم آدم عليه السلام، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾(الإسراء:٧٠)، فكانت الكرامة الإنسانية سابقة على الكرامة الإيمانية.

وهكذا، يشدد الإسلام في التصور الكلي للآخر، على وحدة النوع والمساواة في الكرامة الإنسانية، والبحث عن تنمية المشتركات ونبذ معايير التفاضل إلا بالخير والتقوى، وهو ما عبّر عنه الإمام علي رضي الله عنه بقوله: "قيمة كل امرء ما يحسنه".

المشترك الإنساني هو القيم الكونية التي لا تختلف فيها العقول، ولا تتأثر بتغير الزمان أو محددات المكان أو نوازع الإنسان، لأن لها منابت وأصولاً تحفظها من عوادي الدهر وتعسفات البشر.

أكثر الفلاسفة تحت قيادة "كانت" رئيس المذهب المطلق، يرون أن الحق والخير والجمال هي قيم أزلية لا علاقة لها بالزمان ولا بالمكان، فما كان قيمة في الماضي هو قيمة في الحاضر، وسيظل قيمة في المستقبل، وأن هذه القيمة بالنسبة للصيني وبالنسبة للأوروبي وبالنسبة للعربي، هي قيمة واحدة ولو كانوا يجهلون ذلك.

وهذا المذهب المطلق أرى أنه هو الذي تؤيده

الديانات السماوية وتقدمه أوعية اللغة ومفاهيمها؛ فـ"العدل" في كل لغة وفي كل مكان كلمة جميلة، وعندما ننطق كلمة "الوفاء" فإنها كلمة جميلة، وعندما ننطق بـ"الظلم" وبـ"الغدر" نجدها في كل اللغات والثقافات كلمات ممقوتة. بل حتى الظالم والغادر لا يريد أن يكون كذلك، ويود لو كان عادلاً وفيًّا صادقًا.

هذه القيم المشتركة يجب إعادتها في حياة الناس، وهي مبثوثة في كل رسائل ودعوات الأنبياء، والإنسانية كلها اليوم محتاجة إليها حاجة الفطيم إلى الحنو والحنان والعطف بعد أن أحال السفهاء والمجانين مجالات حركتها إلى حقول ألغام؛ إنها قيم السلم الثابتة التي لا تتغير، وهي الأمر الكلِّي الذي لا تتخلف جزئياته ولا تخص جنسًا دون جنس أو دينًا دون دين.

لقد أصبح من الضروري المستعجل أن نتجاوز الشجب والتحذير لنبادر إلى الفعل في الوقت المناسب، فلن يكون للأجيال الآتية أي وقت للفعل، ويخشى أن تصبح هذه الأجيال أسيرة سيرورات ليس لها عليها سلطانٌ كالنمو السكاني والتدهور البيئي والتفاوت بين الشمال والجنوب أو التمييز الاجتماعي.

أن ننتظر إلى الغد، يعني أن نصل دائمًا متأخرين، فثمة شيء في غاية الهشاشة نحن مؤتمنون عليه: إنه الحياة في هذا الكوكب الأرضي.

على هذا الشعور بالمأزق تتأسس المسؤولية المشتركة التي ضرب لها النبي ﷺ مثال السفينة، حيث قال: "مَثَل القائم في حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم اسْتهَموا على سفينة، فأصاب بعضُهم أعلاها، وبعضُهم أسفلها، فكان الذي في أسفلها إذا استقَوْا من الماء مرُّوا على مَن فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خرقْنا في نصيبنا خرقًا ولم نُؤذِ مَن فوقنا؟ فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعًا، وإنْ أخذوا على أيديهم نجَوْا ونجَوْا جميعًا" (رواه البخاري).

المشترك الإنساني هو القيم الكونية التي لا تختلف فيها العقول، ولا تتأثر بتغير الزمان أو محددات المكان أو نوازع الإنسان، لأن لها منابت وأصولاً تحفظها من عوادي الدهر وتعسفات البشر.

حراء

إن البشرية الآن في سفينة واحدة على وشك الجنوح، فلا بد لأهل القيم أن يأخذوا على أيدي الذين يريدون خرق السفينة.. ينبغي الانطلاق من الرغبة المشتركة النابعة من المسؤولية المشتركة في إحلال السلم محل الحرب، والمحبة مكان الكراهية والوئام بدل الاختصام، إذ من شأن ذلك أن يعبئ طاقات رجال الدين والمثقفين والأكاديميين من كل الأديان والثقافات للتحالف في حلف فضول، لإزالة هذا الخطر الحضاري.

الحوار ضرورة إنسانية

ويقوم هذا الحلف على تعزيز قيمة الحوار. فالحوار واجب ديني وضرورة إنسانية وليس أمرًا موسميًّا. الحوار من أصل الدين ومن مقتضيات العلاقات البشرية، ولذا أمر به الباري ﷻ فقال: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(النحل:١٢٥)، وقال :﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾(العنكبوت:٤٦). بالحوار يتحقق التعارف والتعريف، والحوار يشهد للاستعداد الحاصل لدى جميع الأطراف لتقديم وجهات النظر النافعة والصالحة

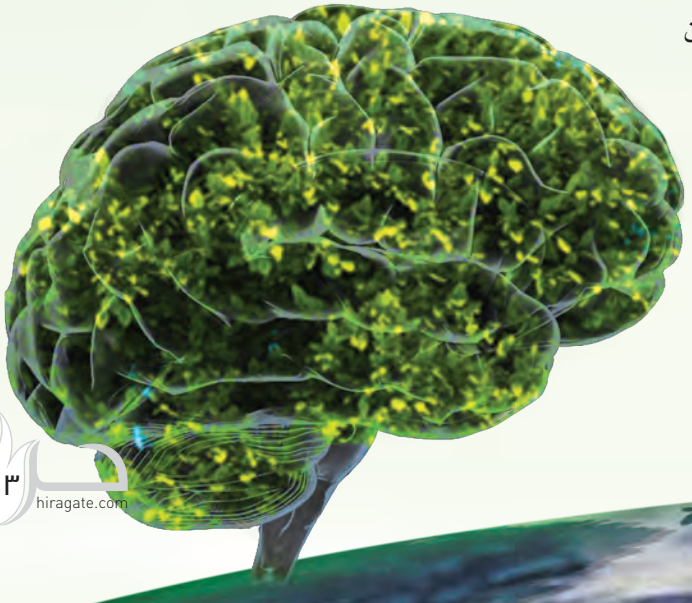

لحل مشاكل الكوكب الأرضي الذي نعيش عليه.

الحوار قيمة، والحوار مفتاح لحل مشاكل العالم. الحوار احترام الاختلاف؛ فصاحب الحوار يحترم الاختلاف بل يحب الاختلاف، بحيث ينظر إليه كإثراء، كجمال، كأساس لتكوين المركب الإنساني.

الحوار يدخل في قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(فصلت:٣٤)، فهل لنا أن نأمل بالحوار اليوم في تنمية جوانب الخير والقيم الإنسانية الخيرة المشتركة؟

الأصل في الحوار هو الاختلاف

إننا لا ندخل في الحوار إلا ونحن مختلفان، بل إننا لا نتحاور إلا ونحن ضدان؛ لأن الضدين هما المختلفان المتقابلان، والحوار لا يكون إلا بين مختلفين متقابلين أحدهما يُطلق عليه اسم "المُدَّعي" وهو الذي يقول برأي مخصوص ويعتقده، والثاني يُطلق عليه اسم "المعترض" وهو الذي لا يقول بهذا الرأي ولا يعتقده.

وأساليب الحوار عديدة، وصيغه متنوعة؛ فالحوار في الصحافة والقنوات وداخل الأندية والمؤتمرات ومجالس الشورى والبرلمانات، والمفاوضات التجارية في المنظمات الدولية للتجارة، وبين الأفراد في الأسواق والبورصات، وخصومات الأزواج في البيوت.. وكل نوع من هذه الأنواع له طرقه وأساليبه، ويكون داخل الشعب الواحد حيث تتسع دائرة المشترك، وبين الشعوب المختلفة كالحوار بين الشرق والغرب، وبين الأديان والملل المختلفة، فيكون المنظور الإنساني هو من يشكل آفاق الحوار.

والحوار يقدم -كما يقول أفلاطون- البدائل عن العنف؛ لأنه بالحوار يُبحث عن المشترك وعن الحل الوسط الذي يضمن مصالح الطرفين، وعن تأجيل الحسم العنيف، وعن الملاءمات والمواءمات التي هي من طبيعة الوجود، ولهذا أقرّها الإسلام، وأتاح الحلول التوفيقية التي تراعي السياقات وفق موازين المصالح والمفاسد المعتبرة.

إن اعتماد وسيلة الحوار لحل المشكلات القائمة يوصل إلى إدراك أن الكثير منها وهمي لا تنبني عليه مصالح حقيقية، وبهذه الحلول التوفيقية التي يثمرها الحوار، تفقد كثير من القطائع والمفاصلات والأسئلة الحدّية مغزاها.

وينبغي أن يكون الحوار عميقًا عمق الإشكال الذي يعالجه، حوارًا يطول جميع المستويات ويتجسد في كافة القطاعات، ينطلق من أبسط مستويات الحياة المجتمعية إلى أكثرها تعقيدًا وتركيبًا من البيت إلى الجامعة.

غرس التسامح في النفوس

لا بد من غرس ثقافة التسامح في النفوس.. يجب اتخاذ السبل بكل الوسائل التثقيفية وفي مقدمتها التعليم والتربية، والإعلام الجماهيري؛ لإيجاد تلك القيم والتصوُّرات لضبط وكبح جماح النفوس الميالة إلى العنف، وترجيح كفَّة التسامح وحسن تقبُّل الآخر، وباختصار، إيجاد الروح الاجتماعية والتعايش البناء بين أفراد المجتمع.

ومعنى ذلك أنَّ المثل والقيم التي يتلقّاها ويلقنها أفراد المجتمع عن طريق القنوات والأدوات التثقيفية في مختلف مراحل التعليم، ووسائل الإعلام بشتى أشكالها، وغيرها من وسائل الاتصال الجماهيري ذات المضمون الرصين المتسامح والمتعقّل، لا يخرج على النّهج العام السائد والأعراف المقبولة، لشحن العواطف وإلهاب المشاعر دون وزن للعواقب ولا مبالاة بالنتائج.

إذن، فلا بد من علاج بالمضادات، ونعني بالمضادات الحيوية؛ ذلك الخطاب الحي الواعي الذي يقوم على نبذ العنف وزرع ثقافة السلام والتسامح والمحبة، وتقديم البدائل أمام الشباب اقتصاديًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا، ومحاولة صرف جهودهم ونشاطهم في قنوات لصالح المجتمع ولصالح التنمية، وجَسر العلاقة بين مختلف الفئات وتجديد الفكر التوفيقي والمنهج الوسطي في النّفوس، وحشد جهود الطبقة المثقفة في الجامعات والمدارس ووسائل الإعلام لذلك.

فعندما تتصالح الأديان وتتصافح، فإن من شأن ذلك أن يعزز روح السلام في العالم، ويسهّل الولوج إلى طريق العدالة والخير ومعالجة المظالم والمظلوميات. وكما قال اللاهوتي السويسري "هنس كونج": لا يمكن للسلام العالمي أن يتحقق بدون أن يتحقق السلام بين الأديان.

ولقد آن لرواد الديانات أن يبرهنوا على فعالية أفضل وانخراط أكبر في هموم المجتمعات البشرية، لإعادة الرشد وإبعاد شبح الحروب والفتن المهلكة. إذا كان

hiragate.com

البعض ينظر إلى الدين كعامل تفرقة وتمزيق لنسيج الشعوب، فنحن في مبادرة القوافل نريد أن نبرهن عمليًّا على أن الدين يجب أن يكون سبيلاً لالتئام المجتمعات البشرية والقضاء على أمراض الحقد والكراهية المستحكمة. تلك هي العبرة والدعوة والرسالة التي نوجهها من خلال هذه القوافل، إذ إن التضامن والتعاون، يجب -في النهاية- أن يبرز، وأن ينجز أعمالاً ميدانية تبرهن للعالم كله أن الدين في أصله هو عامل خلاصٍ ورحمة للعالمين.

إن ذلك يحمِّل رجال الدين عبئًا فيما يتعلق بكل ديانة، لمعالجة التطرف والغلو، وإعادة التوازن في نطاق كل ديانة لبناء الجسور بين الديانات على أسس صلبة ودعائم قوية قابلة للاستمرار والاستقرار بل للازدهار والانتشار، لإعلان الانتصار على الشر.

وفي الختام، فإنه يتعيّن أن نحمل جميعًا رسالة السلام التي تعني:

• أن ندرك حقائق المفاهيم المؤطرة للسلام، وأن ندرك -في نفس الوقت- زيف تأويل المتطرفين وتحريف الغالين.

• أن ننشر هذا الفهم من خلال كل الوسائل المتاحة في الصحافة والتعليم.

• أن نقدّم مبادرات ميدانية لإفشاء السلام في المجتمعات التي نعيش فيها.

• أن نشجع برامج التسامح والتعايش.

• أن نقدم القراءة الصحيحة للشريعة، وأن نؤطر الأحكام التكليفية بخطاب الوضع، ومعنى ذلك، أن ننزل النصوص في بيئة الواقع ليكون التنزيل متوخيًا لمقاصد الشريعة.

• أن نتضامن مع أولي بقية في كل مكان لنشر قيم السلام.

ويكون السير في ثلاثة اتجاهات:

١- ترتيب بيت الإسلام من خلال تفكيك منظومة الفكر المتطرف، وإظهار عوار طرق الاستدلال لدى هؤلاء وضحالة منازعهم في الاستنباط بإبراز المناهج الصحيحة والمآخذ السليمة في التعامل مع نصوص الكتاب والسنة، وهكذا فيكون الكلّي حاكمًا على الجزئي، ويكون الجمع بين الأدلة بديلاً عن التجزئة، وتصبح المقاصد مترجمة لمغزى النصوص ومبينة مدى تطبيقها ومبرزة سبيل انسجامها وتنسيقها.

لنبين بحق أن الشريعة إنما جاءت لمصالح العباد في عاجلهم وآجلهم، وأن الرسالة الخاتمة إنما جاءت رحمة للعالمين، وأنه لا تعارض بين العقل والنقل، إلى غير ذلك حتى يُقضى على أفكار التطرف وآراء المتطرفين بالحجة والبرهان.

وهذا الجهد داخل البيت الإسلامي ضروري لهزيمة الفكر المتطرف الذي يشوه الإسلام ويقدم الذرائع للكراهية والبغضاء، لأن العلاقة بين متطرفي الإرهاب ومروجي الكراهية علاقة تلازمية، فكل منهما يمد الآخر، ويؤثر كلاهما على الآخر تأثيرًا طرديًّا وعكسيًّا.

٢- نقل الحوار إلى الدائرة الثانية، وهي الدخول في حوار على مستوى عالمي، لتقديم الرواية الصحيحة عن الإسلام، والتعايش مع المسلمين، من خلال التأكيد على الصورة المنفتحة والمتسامحة للإسلام، والمصالح المتبادلة والمتداخلة بين المسلمين وغيرهم في المجتمعات، وتأكيد قيمة المواطنة والقيم الإنسانية النبيلة.

٣- الانتقال إلى مرحلة التضامن مع أولي بقية يلتزمون بالقيم والمثل المشتركة للأخوة الإنسانية، لتكوين "حلف الفضول" الذي ينبذ التمييز والكراهية، ولا يحمّل دينًا ولا حضارةً جريرة السفهاء على قاعدة: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾، حلف يدعو إلى السلام والإخاء بين أبناء البشر كافة، ذلك هو التيار الذي يجب أن تشكله النخبة من رجال الدين والفلسفة، ورجال الفكر والأكاديميين من كل الديانات ومن كل الفلسفات. ■

(*) رئيس منتدى تعزيز السلم في المجتمعات المسلمة ومؤسسة الموطأ في "أبو ظبي". تم اختياره من قبل جامعة جورج تاون كواحد من أكثر ٥٠ شخصية إسلامية تأثيرًا في العالم للأعوام ٢٠٠٩-٢٠١٦م / موريتانيا.

الهوامش

(١) هذا المقال جزء من الكلمة التأطيرية لمنتدى تعزيز السلم ٢٠١٧ المعنونة بـ"السلم العالمي والخوف من الإسلام".

hiragate.com

د. ناصر أحمد سنه*

النسبة الذهبية
إيقاع الكون الجميل

على مدار ٢٤٠٠ عام، سحرت النسبة الذهبية (The golden ratio) الناس والاختصاصيين في عدة مجالات، وشغلت عقولاً كثيرة من "إقليدس" و"فيثاغورس"، و"يوكليد" (اليونان القديمة)، مرورًا بعالم الرياضيات الإيطالي "ليوناردو بيزا" (العصور الوسطى)، وعالم الفلك الشهير "يوهانز كيبلر"، إلى شخصيات حديثة كالفيزيائي "أوكسفورد روجر بينروس"، والروائي "دان براون" في روايته الشهيرة "شيفرة دافنشي". وتتأسس أبجدية العلوم على الرياضيات، لكن سحر هذه النسبة لا يقتصر على الرياضيات؛ فهي "معيار جمالي" لدى المعماريين، والبيولوجيين، والمؤرخين، والفنانين، والموسيقيين، والخطاطين، والنفسانيين، وحتى الصوفيين.. فما الذي جعلها بهذا القدر من إثارة الفضول وحظوة القبول؟ وما سرها "الغامض" الذي أفضى لفهم روعة كثير من مفردات الكون البديع جماداته وأحيائه؟

لقد وضع الإغريق نظريات دقيقة للفنون، كالرسم والنحت والموسيقى، وقاموا بربطها بالرياضيات، وطوروا علم هندسة الأشكال الجامع بين الرياضيات والرسم. ويشار إلى أنهم دشنوا ما يعرف بـ"النسبة الذهبية"، وهي عبارة عن ثابت رياضي معرف تبلغ قيمته ١,٦١٨٠٣٣٩٨٨٧ تقريبًا. وهذه النسبة فريدة من نوعها، حيث نسبة الكل ١,٦١٨ لجزئه الأكبر ١ متطابق مع نسبة الجزء

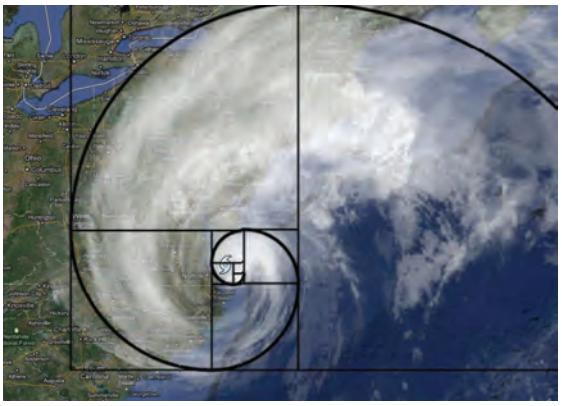

الأكبر ١ للجزء الأصغر ٠,٦١٨. وتبرز في هذا المضمار، متوالية "فيبوناتشي" (Fibonacci Series) التي وضعت عام ١٢٠٠ لدراسة تكاثر الأرانب، على يد عالم الرياضيات "ليوناردو دا بيزّا" (فيبوناتشي) المولود عام ١١٧٥ في بيزا بإيطاليا. واقترح الرياضي "مارك بار" استخدام أول حرف من اسم النحات والمعماري اليوناني "فيدياس" (٤٨٠ق.م-٤٣٠ق.م) "فاي" رمزًا لهذه النسبة.

وتبدأ بالصفر إلى ما لا نهاية، ويلاحظ فيها أن أي رقم يساوي مجموع الرقمين اللذين يسبقانه، ونسبة قسمة أي رقمين متجاورين ينتج الرقم الذهبي، فمثلاً: (٣٤/٥٥=١,٦١٨)، أو يمكن عكس العملية لتكون: (٥٥/٣٤=٠,٦١٨). وإذا قطع المستقيم لقسمين وكانت النسبة بين مجموعهما إلى القسم الأكبر، يساوي النسبة بين العدد الأكبر للعدد الأصغر=١,٦١٨ فيسمى "المستقيم الذهبي". ولسهولة فهم هذه النسبة يستخدم "المستطيل الذهبي" (خارج قسمة طوله على عرضه=الرقم الذهبي). وهو مستطيل يرسم بداخله مربع وهكذا إلى ما لا نهاية. ويظهر تصميمات المستطيل الذهبي في أعمال المصورين والرسامين والمعماريين، لإظهار ملامح الجمال في أعمالهم، حيث كلما كانت أبعاده أقرب لهذه النسبة كان العمل أكثر روعة.

وأطلق على "النسبة الذهبية" عدة أسماء لاكتشافها عدة مرات، فهناك "المثلث الذهبي"، و"المضلع الذهبي"، و"خماسي الأضلاع المنتظم" (خارج قسمة القطر على أحد الأضلاع=فاي)، كما توجد خطوط الالتواء وفق "فاي" الجاذبة للعين نحو مركز الشيء. ومن تجليات تلك الخطوط التواء دوامات المجرات، وأمواج البحار، والتواء

الحلزون والقواقع والأصداف البحرية، وقوقعة الأذن البشرية، وخطوط باطن كف الإنسان وأصابعه، ولولبية الحمض النووي البشري، والتواء خطوط اللوحات الفنية الشهيرة.. وإن كل ما يحيط بنا يبدو جميلاً عند خضوعه لتلك النسبة الذهبية.

في الكون المنظور وعالم البيولوجيا

إن أروع المشاهد الطبيعية، تلك التي يكون فيها توزيع اليابسة والبحر والسماء خاضعًا لهذه النسبة الذهبية. وقد يكون أجملها تلك التي يحتل فيها خط الأفق أكثر من ثلثي الصورة قليلاً، أو تشكل السماء أكثر من ثلثها قليلاً. وينطبق الأمر نفسه على الفن التشكيلي. ويكون العمل أروع، كلما كانت نسب مكوناته مقتربة من النسبة الذهبية. ويمتاز "نجم البحر" بشكله الخماسي الأضلاع "الذهبي". كما تظهر هذه النسبة الذهبية في أي خلية للنحل، فنجد أن عدد إناثها يفوق عدد ذكورها بنسبة ثابتة وهي ١,٦١٨. وإذا تركنا زوجًا من الأرانب يتكاثر في حقل محدد وظروف ملائمة ولمدة معينة، سنلاحظ أن عددها يتزايد وفق متتالية "فيبوناتشي". وقد تخضع ضربات القلب، وأجزاء جسم الحيوان، لهذه النسبة الرائعة أيضًا.

النسبة الذهبية في الإنسان

يذهب المختصون إلى أن جزيء الحمض النووي يستند على النسبة الذهبية، فهو بأبعاد ٣٤ انغستروم طولاً بنسبة ٢١ انغستروم عرضًا لكل دورة كاملة من دوامة لها "الحلزون المزدوج" الذي يمثل وحدة الـDNA. وثمة ملاحظة للدكتور "نورمان روز" يوضح فيها أن المراحل الأساس لنمو الإنسان، تمثل أرقام متتالية فيبوناتشي؛

hiragate.com

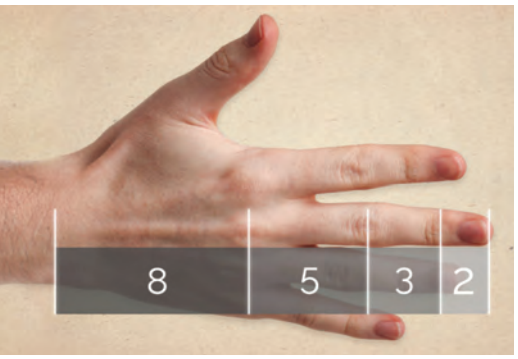

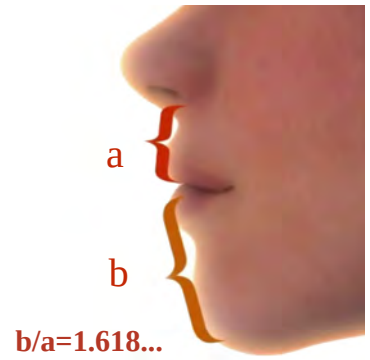

فعند "الصفر" يكون جنينًا، وعند عمر "١" يكون مولودًا حديث الولادة، وعند أواخر عمر "١" يبدأ ظهور الصوت والمشي، وفطامه في "٢"، وعند "٣" تبدأ مرحلة الاعتماد على النفس والتحكم والتدريب على استخدام الحمام، وعند "٥" التعليم المبكر، وعند "٨" منتصف الطفولة والتمييز بين الصواب والخطأ، وعند "١٣" البلوغ، وعند "٢١" سن الرشد، وعند "٣٤" منتصف الأبوة والمهارات المصقولة، وفي "٥٥" بدء سن الضمان الاجتماعي واكتمال المهارات والتقاعد، وأخيرًا عند "٨٩" الاكتمال والحكمة.

كما اهتم العلماء باكتشاف جسم الإنسان وتشريحه، وفهم الأبعاد الموجودة بين الأعضاء البشرية. وتمثلت أعرق وأشهر هذه الدراسات، في الرسم التوضيحي "رجل فيتروفيان" (Vitruvian Man) للفنان الإيطالي "ليوناردو دافنشي". ويزخر وجه الإنسان بأمثلة عديدة للنسبة الذهبية التي أظهرتها قياسات المصممين والفنانين، فالرأس "مستطيل ذهبي" مع مركز الإبصار في منتصفه، ويحقق خط تمركز العينين فيه تلك النسبة. وعصيات العين ومخاريطها تتوافق مع مبدأ المقطع الذهبي. وموضع الفم والأنف عند المحاور الذهبية. وتتجلى النسبة في

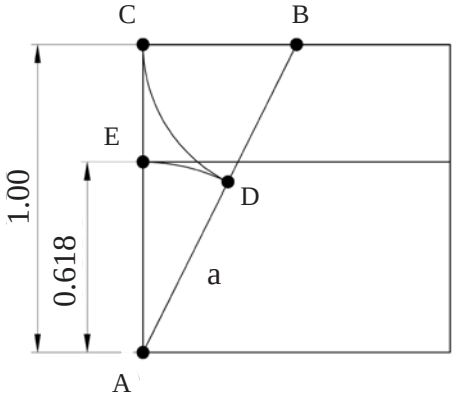

طول الوجه إلى عرضه، وفي المسافة بين العينين وأسفل الذقن، والمسافة بين الحنك والشفة السفلى مقسومة على المسافة بين الأنف والشفة العليا، والمسافة بين فتحة الفم وارتفاع الأنف، والمسافة بين الكتف وأطراف أصابع اليد مقسومة على المسافة من الكوع لأطراف الأصابع، ومسافة الساق بين جزئيها الكبير والصغير وتنطبق على جزئي الذراع. فضلاً عن أن السرة تَقسم الجسم لقسمين النسبة بينهما ذهبية، وكذا المسافة من السرّة لِقمّة الرأس تقسمها الحنجرة بذات النسبة، وأيضًا المسافة بين السرّة والقدمين تقسمها الركبة. وحتى الأذن تعكس شكل "دوامة" فيبوناتشي الشهيرة. لذا يرى العلماء وخبراء التجميل، أن جمال الإنسان يستند على هذه النسبة الخلقية، وقد يتم اختيار ملكات الجمال وفقًا لها.

في العمارة والتصميم

النسبة الذهبية مريحة للعين، وتشكل أهم معايير الجمال في العمارة والديكورات وحتى أغلفة المجلات، لذا يسعى المعماريون لجعل تصاميمهم متسقة مع بعضها ووفقها لتبدو رائعة. ويشار إلى أن بناء أهرامات الجيزة جاء وفق هذه النسبة. فيبلغ طول ضلعي قاعدة الهرم الأكبر بالجيزة بمصر ٧٥٦ قدمًا، ويبلغ طول ارتفاعه ٤٨١ قدمًا، والنسبة بين القاعدة والارتفاع تساوي ١,٥٧١ وهي قيمة قريبة من الرقم الذهبي. ويُعتقد أن المعماري اليوناني "فيدياس" قام بتوظيفها في تصميم منحوتات هيكل البارثينون أكروبوليس أثينا.

كما روعيت النسبة عند بناء عدد من المساجد الشهيرة كجامع القيروان الكبير (مسجد عقبة بن نافع) في تونس؛ ففي تصميمه تناسق بين معظم أرجائه، من المساحة الكلية إلى مساحة فناء المسجد حتى التناسب الواضح

في مناراته. كما تتضح في مبنى الأمم المتحدة عند مقارنة عرض المبنى إلى الارتفاع لكل عشر طوابق فيه. وكان "إقليدس" قد وضع العلاقة بين النسبة الذهبية وطريقة إنشاء النجمة الخماسية. ويشتهر كلٌّ من المعماري "لوكوربوزييه" (Le Corbusier) أسطورة العمارة الوظيفية، و"ماريو بوتا"، بتوظيفهما النسبة الساحرة في كثير من أعمالهما. ففي عام ١٩٤٥، اعتمد "لوكوربوزييه" على المستطيل الذهبي لكل أعماله الهندسية. وألَّف كتابًا يرتكز على المقطع الذهبي وعلى مقاييس جسد الإنسان، أطلق عليه تسمية "الضابط" (Modulor)، وهو تقسيم خط أو تجزئته مع الحفاظ على التناسبية بين طوله الكامل وكافة الأجزاء الصغيرة التي نحصل عليها، والعكس صحيح.

في الفن والموسيقى

في عصر النهضة اعتمد الفنانون على النسبة الذهبية في أعمالهم الفنية؛ فصمم "دافنشي" لوحته الشهيرة "الموناليزا" وفقها، فظهرت بروعتها المعروفة.. وهكذا فعل مع لوحة "العشاء الأخير" الشهيرة، حيث أدخل "فاي" في إنشاء أبعاد الطاولة والجدران والرسم الخلفي للوحة، كما شرح "دافنشي" كتابًا يبيّن الخصائص الرياضية والجمالية العجيبة للرقم الذهبي ويسمى "De divina proportio" (التناسب الإلهي)، وقد ألفه الكاهن الإيطالي "فرا لوكا باشيولي". وفي الفن المعاصر، اشتهر الرسام "سلفادور دالي" بتكريس النسبة الذهبية، وبخاصة لوحته (The Sacrament of the Last Supper). ونجح الموسيقيون ومؤلفو السيمفونيات، في الحصول على جمل موسيقية رائعة، وذلك بجعل ضغطات مفاتيح الآلة (مثل البيانو) يجري وفق تباعد رياضي ثابت وفقًا لمتتالية "فيبوناتشي". وألفت الفرقة الموسيقية الأمريكية أغنية بعنوان "لاتيرا"،

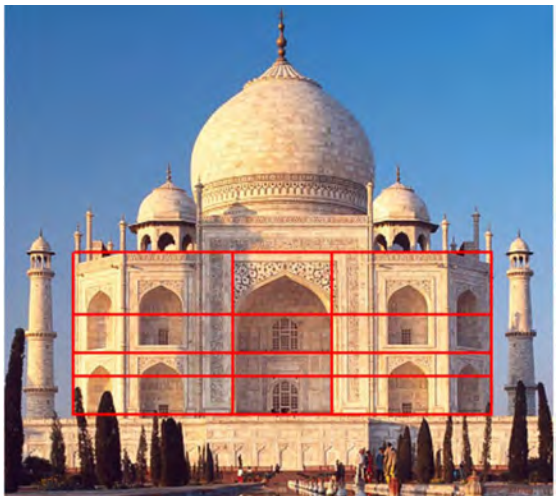

وبها جمل غنائية مقاطعها ٣,٥,٨,١٣,٣,٥,٨,٥,٣,٢. أما الثانية فهي ٨,٥,٣,٢,١,١,٢ وكلها أرقام "فيبوتاشي".

في إيقاع الحياة اليومي

إن الاقتراب من النسبة الذهبية في تصميم مفردات الحياة اليومية (أبعاد السيارات، والأثاثات، والأدوات المنزلية)، يجعلها أقرب إلى التكامل الجمالي الباعث على الراحة النفسية والبهجة الروحية. هل تساءل أحد عن سر الهيبة والفخامة التي تطبعها هذه السيارة في نفوسنا؟ نعم، معظم مظاهرها وسماتها تخضع لقانون الهندسة السحرية. ويمكنك التأكد من ذلك من خلال إجراء قياسات لجوانب مختلفة من سيارة مرسيدس -مثلاً- وستلاحظ بسهولة أنها تحقق النسبة الذهبية، لأنها صمِّمتْ وفقًا لهذه النسبة.. شاشات التلفاز، أو الكمبيوتر عالية الوضوح (HD)، حيث كانت الشاشات المستخدمة في السابق مربعة الشكل ونسبتها ١:١ ووضوحها أقل، رأى مصممو التلفاز أن أفضل نسبة لأبعاد الشاشة للحصول على صورة أوضح وأفضل شكليًا، هي نسبة ٨٠٠:١٢٨٠، وإذا قسمنا هاتين القيمتين ١٢٨٠ على ٨٠٠ لحصلنا على نسبة ١,٦.

إذن، إن النسبة الذهبية تمثل إيقاع الحياة الجميل. فالتناسب والتناسق والبساطة، من أهم أسرار الجمال والمتعة البصرية المبثوثة في مفردات الكون.. وعندما يتم الابتعاد عن هذا الإيقاع الماتع الساري، تظهر نشاز النغمات المزعجة. ■

(*) كاتب وأكاديمي / مصر.

hiragate.com

أحمد أبو زيد*

القدس
في ذاكرة صاحب الأنس الجليل

يعد كتاب "الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل" موسوعة تاريخية وجغرافية متكاملة، شملت مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والحضارية والفكرية لمدينة القدس وما حولها من مدن ومناطق، في عصر صاحبه المؤرخ الكبير مجير الدين العليمي الحنبلي، الذي يعد من أهم المؤرخين الذين كتبوا عن القدس وعمارتها وحضارتها وجغرافيتها. وتعد كتبه من أهم المراجع لتاريخ المدينة المقدسة، والتي اعتمد عليها الكثير من العلماء والباحثين الذين جاؤوا من بعده.

ولد مجير الدين الحنبلي في الرملة عام ٨٦٠هـ-١٤٥٦م، وفيما بعد انتقل للعيش في القدس ليتعلم في رحاب المسجد الأقصى وفي مدارس بيت المقدس، ثم انتقل إلى القاهرة ومكث فيها عشر سنوات للاستزادة من العلوم، حيث أجاد الكثير منها، كالتفسير والحديث واللغة والتاريخ.. وعاد بعد ذلك إلى القدس ليتولى القضاء لأكثر من ثلاثين عامًا، في كلٍّ من الرملة والخليل والقدس ونابلس، وذلك في عهد الدولة المملوكية. لُقِّب مجير الدين الحنبلي بقاضي القضاة، واستمر في هذا المنصب حتى ما بعد دخول العثمانيين القدس، وتوفي عام ٩٢٧هـ-١٥١٦م، وله عدة كتب في التاريخ والعلوم.

ما أهمية كتاب الأنس الجليل؟

يعد "الأنس الجليل" من أوسع الكتب والمصنفات التي تناولت تاريخ بيت المقدس منذ فجر التاريخ وحتى سنة ٩٠٠هـ-١٤٩٤م، ومن أوفر المصادر التي تناولت الحياة العلمية في بيت المقدس في العهدين الأيوبي والمملوكي، حيث وفر المادة العلمية الصحيحة عن تاريخ كل من القدس والخليل، ويؤرخ للمدينتين المقدستين بشكل خاص، ولفلسطين في فتراتها المتعاقبة بشكل عام.

فقد وصف القدس وعمارتها وصفًا دقيقًا، كما وصف الكثير من مدارسها ومساجدها وزواياها وغيرها من المراكز التعليمية، وذكر تراجم لعدد كبير من علمائها وفقهائها والعلماء الوافدين إليها، الذين شاركوا في الحياة العلمية في فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي. وتبرز أهمية الكتاب في احتوائه على مادة تاريخية وجغرافية كبيرة، تغطي فترة زمنية طويلة بطريقة موجزة امتدت من خلق آدم عليه السلام، مرورًا بالرسل والأنبياء وكثير من الأمم والدول حتى عام ٨٩٦هـ-١٤٩٠م، ومن هنا تظهر براعة المؤلف بإخراج مصنف بهذا الإتقان.

دوافع التأليف

كان الدافع وراء تأليف مجير الدين لهذا الكتاب، الرغبة في تقديم مادة تاريخية تغطي أكبر فترة زمنية لبلاد العرب والمسلمين، لأهمية المنطقة منذ أقدم العصور، كونها مهبط الديانات السماوية، ومطمعًا للغزاة على مر التاريخ. واتسم أسلوب مجير الدين في جمع مادة كتابه، بالاعتماد على الطريقة النقلية عمّن سبقه من الكتّاب، كما انتهج طريقة الاختصار في تقديم مادته، وهذا ما أشار إليه في مقدمة كتابه، وحذف الأسانيد في الأخبار التي أوردها. واستشهد بما يزيد على تسعين آية قرآنية، وستة وسبعين حديثًا شريفًا، ومائة وخمسة عشر بيتًا من الشعر في ثلاث وأربعين مقطوعة شعرية، وظفها لخدمة أغراض الكتاب في الحقب التاريخية التي شملها.

وصف القدس وعمارتها

عندما نقف عند وصف الحنبلي لمدينة القدس في موسوعته، نجده يصفها وصفًا مسهبًا شمل جغرافيتها وعمارتها وأراضيها وحاراتها وأبوابها وأسوارها ومساجدها

"الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل" موسوعة تاريخية وجغرافية متكاملة، شملت مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والحضارية والفكرية لمدينة القدس وما حولها من مدن ومناطق في عصر صاحبه.

ومدارسها، وكل مظاهر الحضارة والعمران فيها، وذلك خلال القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي).

يقول عنها: "وأما مدينة القدس في عصرنا، فهي مدينة عظيمة محكمة البناء، وهي بين جبال وأودية، وبعض بناء المدينة مرتفع على علو، وبعضه منخفض في واد، وغالب الأبنية التي في الأماكن العالية مشرفة على ما هو دونها من الأماكن المنخفضة. وشوارع المدينة بعضها سهل وبعضها وعر، وفي غالب الأماكن يوجد أسفلها أبنية قديمة وقد بني فوقها، فهي بناء مستجد على بناء قديم، والبناء مشحون بحيث لو تفرق على حكم غالب مدن مملكة الإسلام لكان حجم المدينة ضعف ما هو الآن، وهي كثيرة الآبار المعدة لخزن الماء، لأن ماءها يجتمع من الأمطار.

وأما بناء بيت المقدس، فهو في غاية الإحكام والإتقان، جميعه بالأحجار البيض النحت، وسُقُفه معقودة، وليس في بنائه لبن، ولا في سقفه خشب. وقد ذكر المسافرون أنه لم يكن في جميع المملكة أتقن عمارة ولا أحسن رؤية من بناء بيت المقدس، وفي معناه بناء بلد سيدنا الخليل عليه السلام لكن بناء القدس أمكن وأتقن، وبقرب منه بناء مدينة نابلس. فهذه المدن الثلاث بناؤها متقن لكونها في الجبل، والحجارة فيها كثيرة متيسرة.

وصف المسجد الأقصى

يقدم مجير الدين في موسوعته وصفًا دقيقًا للمسجد الأقصى محددًا مفهومه للمسجد. فمن المتعارف عليه عند الناس، أن الأقصى هو الجامع المبني في صدر المسجد من جهة القبلة الذي به المنبر والمحراب الكبير، وحقيقة الحال أن اسم الأقصى هو لجميع المسجد وما دار عليه السور. فإن هذا البناء الموجود في صدر المسجد

hiragate.com

وغيره من قبة الصخرة والأروقة وغيرها محدث، والمراد بـ"المسجد الأقصى" هو جميع ما دار عليه السور.

يقول تحت عنوان "ذكر صفة المسجد الأقصى وما هو عليه في عصرنا": "المسجد الأقصى الشريف -شرفه الله وعظمه- ليس له نظير تحت أديم السماء، ولا بني في المساجد صفته ولا سعته، وكان في الزمان الأول على الصفات العجيبة التي تقدم شرحها.. وأما صفته في هذا العصر، فهي أيضًا من الصفات العجيبة لحسن بنائه وإتقانه، فالجامع الذي هو في صدره عند القبلة التي تقام فيها الجمعة -وهو المتعارف عند الناس أنه المسجد الأقصى- يشتمل على بناء عظيم به قبة مرتفعة مزينة بالفصوص الملونة، وتحت القبة المنبر والمحراب، وهذا الجامع ممتد من جهة القبلة إلى جهة الشمال، وهو سبع أكوار متجاورة مرتفعة على العمد الرخام والسواري، فعدد ما فيه من العمد خمسة وأربعون عمودًا، منها ثلاثة وثلاثون من الرخام، واثنا عشر مبنية بالأحجار".

الصخرة الشريفة ومسجدها

يصف الحنبلي الصخرة الشريفة ومسجدها فيقول: "هي في وسط المسجد على الصحن الكبير المرتفع عن أرض المسجد، وعليها بناء في غاية الحسن والإتقان، وهي قبة مرتفعة علوها واحد وخمسون ذراعًا بذراع العمل الذي تذرع به الأبنية، وهذا الارتفاع من فوق الصحن، وأما علو الصحن من أرض المسجد من جهة القبلة عند قبة النحوية فهو سبعة أذرع، فيكون ارتفاع القبة من أرض المسجد ثمانية وخمسين ذراعًا، وهي مرتفعة على عمد من رخام وسواري مبنية في غاية الإحكام والإتقان، وعدد أعمدة الرخام اثنا عشر عمودًا، والسواري أربع.

والصخرة الشريفة تحت هذه القبة، يحوطها درابزين من خشب، ويحوط بالعمد والسواري الحاملة للقبة درابزان من حديد، وخارج القبة سقف مستدير من الخشب المدهون المذهب على عمد من رخام وسواري، عدة العمد ستة أعمدة، والسواري ثمان، وأرض القبة وحيطانها مبنية بالرخام باطنًا وظاهرًا، ومزينة بالفصوص الملونة في العلو من الباطن والظاهر، والبناء الذي حول القبة على حكم التثمين وذرع دائرة، في سعته من الباطن

مائتا ذراع وأربعة وعشرون ذراعًا، ومن الظاهر مائتا ذراع وأربعون ذراعًا وإن كان فيه نقص أو زيادة فهو يسير".

قباب الحرم القدسي

ثم يصف مجير الدين قباب الحرم القدسي واحدة تلو الأخرى، مثل قبة السلسلة، وقبة المعراج، وقبة سليمان، وقبة موسى، ولا يترك أثرًا واحدًا من آثار الحرم القدسي إلا ووصفه وصفًا دقيقًا، مثل الأسبلة والزوايا والأبواب التاريخية والمساطب والبوائك والمدارس والخانقاوات. فيذكر من مدارس القدس المدرسة التنكزية، والمدرسة الخاتونية، والمدرسة الأشرفية، والمدرسة العثمانية، والمدرسة أو الخانقاة الفخرية، وغيرها من المدارس.

أسواق القدس

وبعد وصف عمائر وآثار الحرم القدسي، يتحدث الحنبلي عن أسواق القدس، فيقول: "وأما ما في القدس الشريف من الأماكن المحكمة البناء، فسوق القطانين المجاور لباب المسجد من جهة الغرب؛ وهو سوق في غاية الإتقان لم يوجد مثله في كثير من البلاد. وأيضًا الأسواق الثلاثة المتجاورة بالقرب من باب المحراب المعروف بـ"باب الخليل"، وهي من بناء الروم ممتدة

hiragate.com

بوابات المسجد الأقصى

قبلة الشام، ومن بعضها البعض منافذ، فالأول منه -وهو الغربي- سوق العطارين الذي وقفه الملك صلاح الدين -رحمه الله- على مدرسته الصلاحية، والذي يليه وهو الأوسط لبيع الخضراوات، والذي يليه لجهة الشرق لبيع القماش، وهما وقف على مصالح المسجد الأقصى الشريف. وقد ذكر المسافرون أنهم لم يروا مثل الأسواق الثلاثة في الترتيب والبناء في بلد من البلاد، وأن ذلك من المحاسن التي لبيت المقدس".

الساهرة أرض المحشر

ثم يتحدث مجير الدين عن الساهرة، وهي من البقاع المشهورة في ظهر بيت المقدس، فيقول: "الساهرة هو البقيع الذي إلى جانب طور زيتا من جهة الغرب. وفي حديث ابن عمر أن أرض المحشر تسمى الساهرة.

وهذا البقيع المعروف بالساهرة، ظاهر بمدينة القدس الشريف من جهة الشمال، وبه مقبرة يدفن فيها موتى المسلمين، وبها جماعة من الصالحين، والمقبرة مرتفعة على جبل عال، وأسفل هذا الجبل كهف من العجائب، وهو زاوية للفقراء الأدهمية داخل هذا الجبل في صخرة عظيمة، وتسمى مغارة الكتان. والمقبرة التي هي الساهرة علو سقف هذه المغارة، بحيث إنه لو أمكن حفر القبور من أسفلها لنفذ إلى الكهف الذي هو زاوية الأدهمية ولكن المسافة بعيدة. فإن الصخرة سميكة ضخمة جدًّا، وقد عمر هذه الزاوية الأمير منجك نائب الشام ووقف عليها هو وغيره من أهل الخير، وفيها قبور جماعة من الصالحين وعليها الأنس والوقار. ومقابل الساهرة من جهة القبلة تحت سور المدينة الشمالي، مغارة كبيرة مستطيلة تسمى مغارة الكتان أيضًا، يقال إنها تصل إلى تحت الصخرة الشريفة، ودخلها جماعة وحكوا عنها أشياء من الأمور المهولة.

أبواب بيت المقدس

وبعد ذلك يتجه الحنبلي في موسوعته، إلى وصف العمارة الدفاعية والتحصينية في القدس وعلى رأسها الأبواب والقلاع، فيقول عن أبواب القدس: "وأما الأبواب التي للمدينة فأولها من جهة القبلة باب حارة المغاربة، وباب صهيون المعروف الآن بباب حارة اليهود، ومن جهة الغرب باب سرّ صغير لصق دير الأرمن، وباب المحراب وهو المسمى الآن بباب الخليل، وباب يعرف بباب الرحبة. ومن جهة الشمال باب دير السرب، وباب العامود، وباب الداعية المتوصل منه إلى حارة بني زيد، وباب الساهرة. ومن جهة الشرق باب الأسباط.

قلعة بيت المقدس

وعن قلعة القدس يقول: "هي حصن عظيم البناء بظاهر بيت المقدس من جهة الغرب، وكان قديمًا يعرف بمحراب داود عليه السلام وكان سكنه بها. ويقال إن بناء القلعة كان متصلاً إلى دير صهيون، وفي هذا الحصن برج عظيم البناء يسمى برج داود، وهو من البناء القديم السليماني. وقد جدد الروم والإفرنج عمارة بقية القلعة غير برج داود حين استيلائهم على بيت المقدس.

وللقلعة نائب غير نائب القدس، وكانت تدق فيه الطبلخانة في كل ليلة بين المغرب والعشاء على عادة القلاع بالبلاد. وقد تلاشت أحوالها في عصرنا وبطل منها دق الطبلخانة، وصار نائبها كآحاد الناس، لتلاشي الأحوال وعدم إقامة النظام، وقد تقدم أن الوالي بالقدس الشريف كان قديمًا ينزل بالقلعة المذكورة. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

hiragate.com

د. ألسكندر سكوت*

أساسيات النموذج الأخلاقي في التعليم

لا شك أن التعليم وسيلة أساسية يتعرف بها الإنسان على حقيقته الذاتية، ويصل بها إلى إمكاناته الكامنة، وإن هذه الرؤية واحدة من المبادئ الرئيسية في فكر الأستاذ فتح الله كولن، وأحد أهم نشاطات مشروع الخدمة. هذه المقالة لها ثلاث أهداف رئيسة، الأول تقديم تعريف عام لمشروع الخدمة، الثاني تسليط الضوء على الخصائص المميزة لمجهودات مشروع الخدمة المتعلقة بنشاطها التعليمي، والثالث هو التعبير عن مدى تجسيد تعاليم فتح الله كولن لفهم التعليم والالتزام به كقوة تحررية، وهو التزام يتردد صداه بعمق في دور التعليم في تفعيل الحقوق المدنية داخل الولايات المتحدة.

التعريف بالخدمة

أُعَرِّف "الخدمة" أنها حركة عالمية للإصلاح الاجتماعي والتجديد الروحي، لها هويتها الثقافية والتعليمية والتربوية تحافظ عليها، وفي الوقت نفسه تفتح أبوابها وتجذب كل البشر من مختلف الديانات والخلفيات الثقافية، الذين يتفقون معها في المبادئ والقيم العالمية، وهذه القيم تدور حول

أهمية الأسرة، والتعليم، والمسؤولية الفردية، وتقديم العون للآخرين.. وكل ذلك في سياق حياة تدور في فلك محبة الله. هذه القيم متوجهة لتأسيس الحوار والتعاون مع وعبر مختلف المجتمعات والحضارات، من أجل تحقيق مزيد من العدالة، وبالتالي مزيد من السلام والتضامن للعائلة الإنسانية جمعاء.

وهكذا نجد أن الخدمة تقف على النقيض ممن يطلقون على أنفسهم لقب حركات "إسلامية" وغالبًا ما يكون هدفهم الأصلي سياسيًّا، ويحملون أجندة لأسلمة الحكومات والأنظمة داخل البلاد التي هي في الأصل ذات أغلبية مسلمة.

١- التسامح روحُ مشروع الخدمة

كما يعرف العديد من القراء، فإن الخدمة تستوحي عملها من أفكار رجل نذر حياته لخدمة الطلاب، وكان يقطع العشب ويغسل الصحون من أجل الطلاب وهو الأستاذ فتح الله كولن يقدّره الملايين من المحبين حول العالم، ويعتبرونه واحدًا من أهل الله المخلصين.. إنه رجل أعطاه الله الحكمة، وأنا شخصيًّا مثل الملايين أعتبره " أستاذي الحبيب".

في الحقيقة يمكن القول الكثير عن هذا الرجل النادر، بل يمكن كتابة المؤلفات عن حياته العجيبة وتضحياته من أجل خدمة الإنسان، وتواضعه وإخلاصه لله تعالى.. ويمكن كتابة ما لا يحصى من المجلدات عن أفكاره المنشورة في كتبه المترجمة للعديد من اللغات، ولكن الأستاذ فتح الله كولن، لن يرضى أن يُوقِف شخص وقته للكتابة عن شخصه، بل أعتقد أنه سيكون في غاية الانزعاج. فهو يفضل الحديث عن هدفه النبيل الذي قدم عمره من أجله، ويدعو الآخرين للاشتراك معه في هذه الغاية النبيلة.. لذا، احترامًا لحساسية الأستاذ سأتحدث عن التسامح الذي يعدّ الروح السائدة في حركة الخدمة المستلهِمة من فكر الأستاذ فتح الله كولن.

يتحدث الأستاذ عن التسامح فيقول في شعره:

افتح قلبك ليسع المحيطات، وتَحلَّ بالحب لكل الموجودات..

لكل الأرواح الحزينة مد يد العون، ولا تدع خارج باب قلبك روحًا تئن.

ورغم أنها أبيات مترجمة، لكنها تشعرك بنفحات قِيَمِية وروحية عميقة، وتقف أمامك قوية رغم عدم كفاية الترجمة للتعبير عن النص الأصلي. أما مصطلح التسامح في اللغة التركية فهو كلمة "Hoşgörü"، وهي تتكون من كلمتين، وتعني بصورة حَرْفِية أن ترى الآخرين من منظور جيد. ولقد علق الأستاذ فتح الله كولن على المعنى اللغوي للكلمة فقال: "النظر بعدسة التسامح يعمق إيمان الشخص، ويجعل إيمانه بعمق لانهائي، ويقلص الأخطاء والمعاصي إلى أدنى حد. والحقيقة أن الله المتعالي عن الزمان والمكان، معاملته لخلقه تمر من طريق التسامح، ونحن نأمل أن تعم روح التسامح كل الموجودات"[1].

وإذا دققنا النظر هنا لما قاله الأستاذ كولن، نجده لا يقول كرامة الإنسان ترتفع من خلال قيمة التسامح، بل يقول إن الله ﷻ بنفسه ينظر للخلق بعدسة التسامح ويعاملهم وفقًا لها.

وبوصف آخر فإن كولن يعبّر عن التسامح، بأنه أمر إلهي ديناميكي في العلاقة بين الخالق والمخلوق، فإن كان الله الواحد العالي المتعالي ينظر بعين التسامح للخلق -لا سيما نحن البشر- بالرغم من ارتكابنا للمعاصي والآثام، فيزيد من حسناتنا كما في الحديث رقم ٣٧ من كتاب الأربعين النووية، فلماذا وكيف ينظر البشر الآثمون للآخرين بطريقة مختلفة؟

٢- التعليم القائم على النموذج الأخلاقي

قبل أن ألتقي شخصيًّا مع الأستاذ كولن، شعرت أني قابلته في كل مَن قابلتهم من أصدقاء داخل الخدمة، فهم يجسدون تعاليمه في حياتهم ويلتزمون بها، وهي

عالمنا اليوم متعطش للمثال والنموذج، والخدمة تعمل جاهدة لسد هذه الحاجة عبر تبنِّيها لمنهجية النموذج الأخلاقي في التعليم، وهذه المنهجية تعتبر عنصرًا رئيسيًّا في الفلسفة التعليمية التي ينادي بها الأستاذ كولن.

hiragate.com

التواضع والاهتمام بالآخرين والمسارعة بالمساعدة، واهتمامهم بالقيم الأسرية، وتطوير أنفسهم، وحبهم التعلم من الآخرين والاستفادة من خبراتهم.. كل هذه الأوصاف الطيبة كنت أراها ممثلة في كل الأصدقاء الذين قابلتهم داخل الخدمة، على الرغم من الأعمال التي يقومون بها وفي مناطق مختلفة في العالم. عالمنا اليوم متعطش للمثال والنموذج وليس فقط للخطاب المنمق، والخدمة تعمل جاهدة لسد هذه الحاجة عبر تبنّيها لمنهجية النموذج الأخلاقي في التعليم، وهذه المنهجية تعتبر عنصرًا رئيسيًّا في الفلسفة التعليمية التي ينادي بها الأستاذ كولن.

وكما يقول "روث وودل"[٢]: "إن كولن لا يطلق لفظ "التعليم" على الجوانب السطحية والفنية في العملية التعليمة، ولكنه يطلق مصطلح "التعليم" على أداء أشد عمقًا ومعنى أكثر شمولية"[٣]، وعلى الرغم من الأهمية التي تعلقها المدارس على التدريب والجوانب الفنية داخل الفصول الدراسية العملية، فالمعلم أكثر من مجرد مزوّد للمعلومات أو المهارات. والعلاقة بين المعلم والتلميذ علاقة في غاية الأهمية: "الطريقة الأفضل للتعليم، هي إظهار اهتمام حقيقي لكل طالب وبصورة فردية، مع عدم إغفال حقيقة أن كل فرد هو عالم مختلف"[٤].

وهكذا، ففكر كولن يركز على أن المعلم يمثل نموذجًا أخلاقيًّا حيًّا للتسامح، ليس فقط داخل الصف الدراسي كتربوي، ولكن كمعلم بمعنى أوسع وأشمل. ولا ينبغي علينا إغفال أن النموذج الذي يستهدفه كولن من المعلم، يتماشى مع مفهوم التسامح داخل حركة الخدمة، ونجده أمام أعيننا ممثلاً في أكثر من ١٥٠٠ مدرسة حول العالم.

وبالعودة لـ"وودل": "الأهمية الممنوحة لتطوير الأفراد داخل الحركة، تقود المدرسين والإداريين لساعات عمل إضافية مجانية، ونجد المدرسين يخصصون أوقاتًا لإعطاء الدروس للطلاب خارج ساعات العمل وفي نهاية الأسبوع. والطلاب المتخرجون في تلك المدارس والملتحقون بالجامعات، يعودون للمدرسة للقيام بأعمال تطوعية لخدمة الطلاب الآخرين"[٥]. ولا يقتصر إيثار المعلمين على التضحية بوقتهم للطلاب، بل إنهم يقدّمون مساعدات مادية للطالب إذا استدعى الأمر، فالعديد من المعلمين يسهم في دعم الطلاب ماليًّا ويدفعون جزءًا من المصاريف الدراسية، أو كلها في بعض الأحيان.

٣- التقييم النقدي المتبادل بين التقليد والحداثة

من سمات تعاليم فتح الله كولن وحركة الخدمة، والتي تمتد جذورها إلى أعمال بديع الزمان سعيد النورسي (المتوفى عام ١٩٦٠)، نجد اهتمامًا بإجراء محادثة نقدية بين التقليد والحداثة فيما يتعلق بمسائل التنمية الاجتماعية والثقافة والإصلاح. فإن كولن يشجع أولئك الذين يلهمهم على تبنّي مشروع استخدام الأفكار الحديثة لنقد وفهم القيم والممارسات التقليدية بشكل أفضل، واستخدام التعاليم التقليدية لتقييم ميزات الحداثة، والوصول إلى التركيب الأمثل بين التقليدي والحديث، من أجل رفاهية المجتمعات البشرية.

كواحد قضى سنواته التكوينية في أواخر القرن العشرين في تركيا، شهد كولن -بشكل مباشر- التأثيرات السلبية للعديد من الدعاية العلمانية القسرية والقمعية كجزء من مشروع أكبر بكثير للهندسة الاجتماعية القومية. على وجه الخصوص، أدرك كولن أن "الديمقراطية" وسمعتها كقيمة "حديثة"، لا يمكن أن تكون أكثر من مجرد خطابات بلاغية مجازية. ففي الواقع شاهد الطريقة التي استخدم فيها هذا المجاز -عندما استخدمه الجمهوريون الأتراك- ليخفي وجهًا لا يرحم من الاستبداد الكمالي الذي يمكن تقييمه على أنه أقل "ديموقراطية" وأقل بالتأكيد "تعددية" من نظام الدولة العثمانية. لذا بالنسبة لكولن، يمكن أن تكون الأفكار الحديثة، مثل تلك المنصوص عليها في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة، عدسة مفيدة للغاية يمكن من خلالها للمسلمين أن يشرحوا بمزيد من الوضوح بعض المبادئ العالمية والإنسانية التأسيسية المعلنة في القرآن الكريم، و جزءًا لا يتجزأ من الفقه الإسلامي. وعلى نفس المنوال رأى كولن أن هذه المبادئ تمتلك الكثير لتقدمه ليس فقط لمصلحة المجتمعات المسلمة المعاصرة، بل لجميع المجتمعات الإنسانية.

ولذلك كتب الأستاذ كولن عن الديمقراطية قائلاً: "لقد تطورت عبر الزمن ومرت بمراحل عديدة عبر التاريخ، وستستمر في التطور في المستقبل وعلى طول الطريق، حتى تتشكل لتناسب احتياج الإنسان وتصبح نظامًا عادلاً، نظامًا يقوم على العدالة والواقعية. فلو

hiragate.com

hiragate.com

نُظر للإنسان بصورته الكلية ولم يُغفل بعده الروحي واحتياجاته الروحية، ولم يُنس كون الإنسان كائنًا أخرويًا وليس مجرد كائن سينتهي بانتهاء هذه الحياة الدنيوية الفانية، حينها ستصبح الديمقراطية نظامًا مثاليًا يسعد جميع البشرية. والمبادئ الإسلامية كالمساواة والتسامح والعدالة، قد تساعد في تطوير الديمقراطية"[٦].

٤- اندماج العقل بالقلب والذكاء بالرحمة

إن الدمج بين الذكاء والرحمة بأوسع معانيه يعبر عن الأستاذ كولن وحركة الخدمة من خلال نهج روحي شمولي واسع، وعلى وجه الخصوص فأبناء الخدمة يفهمون ضرورية العقل في حل المعضلات الاجتماعية المعقدة التي تحتاج إلى تحليل ومعالجة دقيقة، ولكن أبناء الخدمة في الوقت ذاته يعتبرون أن أي حل منطقي يحكم عليه من خلال تأثيره على حياة البشر لا سيما من اهتم بهم القرآن وعبر عنهم بـ"المستضعفين"، وأطلق عليهم العهد الجديد تعبير "الجوعى والعطشى للعدالة".

٥- الحوار والتشاور

الحوار والتشاور موضوع مرتبط بالدمج بين العقل والقلب، خاصة ما يتعلق بتحقيق تطوير اجتماعي صحي، فكلٌ من الأستاذ كولن والخدمة، يتمسكان بالحوار والتشاور، والتشاور أو "الاستشارة" هي عبارة عن مناقشة جماعية حول أفضل إستراتيجيات لتحقيق الأهداف الاجتماعية. وفي الحقيقة لن أذهب بعيدًا إنْ قلت إن الحوار كان نتيجة طبيعية للتشاور الذي يمثل ديناميكية داخل الحركة، ومن ناحية أخرى فالخدمة تتمسك بالحوار بين الثقافات والأديان. بل إن لدي اعتقاد راسخ بأن أخلاقيات ومبادئ الخدمة وممارستها للحوار والتشاور، يتألف منهما الشخصية المميزة للحركة المدنية[٧].

قصة شخصية توضيحية

أود الآن أن أقص عليكم واقعة شخصية توضح عالمية الحركة، كما أنها ستساعد في توضيح التعريف الذي أطلقته على الحركة، والعناصر الخمسة الرئيسية التي حاولت شرحها بصورة مختصرة. منذ عدة سنوات كان لدي مناسبة استدعتني للسفر إلى دولة جنوب أفريقيا، ومن بين الأمور العديدة، تيسرت لي فرصة لزيارة أكاديمية الرياضيات والعلوم للأولاد التابعة للخدمة، والتي خدمت إلى حد كبير شبابًا من بلدة "سوتو" التي كانت تعاني اقتصاديًا من الفقر المدقع، وفي الحقيقة كنت زرت سابقًا مدينة "سوتو"، وعرفت فيها أناسًا يمتلكون معنويات عالية على الرغم مما يعانونه من الفقر المدقع.. ولقد أخذني أحد المعلمين لزيارة أسرة أحد التلاميذ محاولاً تطبيق النموذج التعليمي الشامل الذي يدعو له الأستاذ كولن، وسعدت أثناء الزيارة للمدرسة بأسئلة التلاميذ المطروحة، كما سألتهم عن أوضاعهم وأوضاع المدرسة وأحلامهم وآمالهم.

وبعد هذا الحديث الممتع، عدت مع المسؤول إلى غرفته وطرحت عليه سؤالاً عن خلفية هؤلاء الطلاب الذين قابلتهم توًّا، فتبسم قائلاً: "آبي"(وهي لفظة تركية تدل على الاحترام)، ٨٠٪ من الطلاب هم كاثوليك مثلك.. حينها لم أستطع أن أتمالك دموعي وأنا أعرف أن أبناء الخدمة لا يجدون حرجًا في البكاء أو رؤية أحد يبكي. فالتفكير بأن هؤلاء الأتراك سافروا ملايين الأميال تاركين العيش الرغد والإمكانات المادية الممتازة، وكذلك الجو الروحي.. تاركين عائلاتهم وبيوتهم وجاؤوا لبناء مدرسة في مدينة "سوتو"، ليستفيد منها الشباب الكاثوليك.. هناك أحسست بحالة غامرة من المشاعر، وبعد ذلك عدت إلى أمريكا لكي أزور الأستاذ كولن وأراه بصورة شخصية[٨]. ■

(*) كاتب وأكاديمي أمريكي، وعضو في الاتحاد الكاثوليكي لعلم اللاهوت. الترجمة عن الإنكليزية: صالح القاضي.

الهوامش

(١) The Necessity of Interfaith Dialogue: A Muslim Perspective" (2001)

(٢) Fethullah Gulen's Philosophy of Education in Practice"

(٣) Unal and Williams 2000:312

(٤) Unal and Williams 2000:313

(٥) Aslandogan and Cetin 2007:54

(٦) Toward a Global Civilization of Love and Tolerance (NJ: Tughra, 2011 p. 224)

(٧) cf. Etga Ugur, "Civic Islam in the Public Sphere: the Gulen Movement, Civil Society and Social Capital in Turkey" http://www.islamconference.org/2006/ICI-06%20PAPERS/ABSTRACTS/Etga%20Ugur.pdf).

(٨) هذه نسخة مختصرة ومحررة من حديث قدّمه المؤلف في الأصل بمناسبة منح الأستاذ فتح الله كولن شهادة غاندي الدولية وجائزة كينغ وجائزة إيكيدا لحقوق الإنسان ومبادرات السلام من قبل القس الدكتور مارتن لوثر كنغ من كلية مورهاوس الدولية في ٠٩ أبريل ٢٠١٥.

hiragate.com

د. أحمد الصغير*

خلود اللحظة عند
عاكف أرصوي ونجيب فاضل

دشن الشعراء الأتراك موضوعات عدة سياسية وإنسانية وثقافية، كان لها عظيم الأثر لدى العامة والخواص. ونقف في هذه السطور، على شاعرين مهمين في الأوساط الأدبية، كان لهما دور بارز في الحراك الشعري الفاعل في تركيا.

محمد عاكف أرصوي

الشاعر محمد عاكف أرصوي (١٨٧٣-١٩٣٦) من الشعراء الأتراك الذين أرسوا دعائم الشعر والثقافة التركية الحديثة قبل وبعد تأسيس الجمهورية التركية. فهو شاعر الأمل وصاحب نشيد الاستقلال التركي. كما أسهم في بناء الشخصية التركية من خلال نصوصه الشعرية ومقالاته وترجماته المتعددة. تتميز قصائده بالحس الإنساني الصادق الذي يعبر عن الضمير الحي للأمة التركية خاصة والإسلامية عامة. وتومئ نصوصه إلى ذلك الوعي

الخالص إزاء الأمة التركية، من خلال أفكاره وقضاياه التي تبناها وضحى من أجلها. اغترب وذاق مرارة العيش في المنفى الإجباري (حلوان - مصر)، مما جعله مثقفًا مهمًّا، وشاعرًا مناضلاً تخلدت كلماته عبر العصور والأزمان راسخة في صدور محبيه ومحبي الإنسانية.

تمثل الروافد الثقافية الجانب المهم في حياة كل مبدع، وتسهم في تشكيل وعيه وحياته وأفكاره، ومن ثم صياغة قضاياه التي يتبناها فيما بعد. وقد تنوعت الروافد الثقافية في شعر محمد عاكف، حيث نشأ في وسط ثقافي علمي متميز داخل المحيط الذي ولد وترعرع فيه، ونهل من المعارف المختلفة ومن العلوم الشرعية الإسلامية والثقافية، واللغات الأخرى كالعربية والفارسية والفرنسية، بالإضافة إلى لغته الأم التركية.

إن شاعر الأمل آرصوي، من أهم الشعراء الذين ركزوا على قضايا وطنية وقومية تركية مهمة، واتخذوا من الشعر أداة للدفاع عن هذه القضايا، مما جعل الشعرعنده وسيلة من أجل غاية عظيمة وشريفة؛ تجسدت في حرية الشعب التركي، ورفضه لقوى الاستعمار في ذلك الوقت، حيث كان يدعو إلى وحدة أبناء أمته.

ومن أهم نصوصه القومية التي تغنى بها الصغار والكبار في الجمهورية التركية، قصيدة "نشيد الاستقلال". وعندما سأله أحد الصحافيين عن أهمية نشيد الاستقلال وكيف قام بكتابته؟ أجاب: "لا قيمة لنشيد الاستقلال على اعتبار أنه مجرد شعر، وإنما تكمن قيمته في كونه يعكس صفحة من صفحات تاريخنا بما فيها من آلام".. يقول في نشيده التركي الوطني:

لا تقلق، لن يَخمد العَلم الأحمر المرفرف في السماء
قبل أن تَخمد في آخر دارٍ وطني شعلةُ الضياء[1]

في هذا المقطع تبدو بجلاء الروح التي آثر الشاعر تخليدها، وهي روح الإنسان الذي يبحث عن استقلاله وحريته، مما جعل الكثير من النقاد العرب والأتراك حنيئذ يلقِّبه بشاعر الحرية. إن عاكف أرصوي يتكئ على الحس الوطني المفعم بالحنين والشوق إلى الوصول -من خلال صوته الشعري- إلى قلوب الملايين من المسلمين في العالم.

ويقول في مقطع آخر متحدثًا عن الإنسان المسلم، وموجهًا له خطابًا شعريًّا يحمل الكثير من الإشارات الدلالية التي تمس كياناته ووجدانه، حيث إنه منوط به أن يحافظ على مكتسبات حضاراته وقيمه الإسلامية، وأرضه وثقافته من أجل الأجيال القادمة، يقول:

كنتُ حرًّا منذ الأزل وسأبقى حرًّا
فأيُّ أحمق يستطيع تكبيلي ما أعجبه أمرًا!

إن روح هذا الإنسان ما زالت تشعر بنسيم الحرية، وستظل كذلك ما دامت مؤمنة بحريتها وحرية أراضيها.. ستظل صامدة تكافح عن أبناء وطنها وقيمهم الإسلامية الإنسانية. ثم يستطرد ليقول:

ومهما أحاطتْ الحصونُ الحصينة آفاقَ الغرب
فإن لأرضي تخومًا، كصدري الطافح بالإيمان الصلب

يؤكد عاكف على أن الإيمان إذا رسخ في القلوب فلا يُهزم أبدًا. بهذه الروح، صار محمد عاكف أرصوي رمزًا خالدًا في قلوب الكثير من الناس، وذلك من خلال أشعاره ومقالاته وترجماته، بل أصبح نتاجه الشعري والنثري مرتكزًا قويًّا، انطلق منه جل الباحثين في الشعر التركي الحديث.

ينبغي علينا نحن العرب والمسلمين، أن نتطلع إلى آفاق أخرى في ظل حوار الحضارات والثقافات المتعددة، التي تؤدي فيما بعدُ إلى حوار الشعوب، من خلال الشعر والفن.

حراء

نجيب فاضل كِيصَكُورَك

يعدّ نجيب فاضل كيصكورك (١٩٠٤-١٩٨٣) سلطان الشعر التركي، ألَّف الكثير من الدواوين الشعرية والروايات، والمؤلفات التاريخية المشهورة في الأدب التركي الحديث. تناول نجيب فاضل من خلال شعره، العديد من القضايا المهمة التي كانت تؤرق المجتمع التركي، فانجرف إلى عالم السياسة، وانتقد بشدة السياسات التي كانت تؤرق هذا المجتمع.

تعرض نجيب فاضل للسجن والاعتقال أكثر من مرة بسبب الدفاع عن حريته وحرية المعتقد لدى الإنسان

hiragate.com

محمد عاكف آرصوي

التركي الذي رفض العلمانية في ذلك الوقت. واجه نجيب فاضل الكثير من مشاق الحياة ومعاناتها، الأمر الذي دفعه إلى تسخير نصوصه الشعرية والأدبية في حب الوطن والبلاد.

روح التصوف لدى نجيب فاضل

بدأت علاقة نجيب فاضل بالتصوف عام ١٩٣٤، وذلك عندما التقى بالسيد عبد الحكيم الأرواسي وهو من شيوخ الطريقة النقشبندية، حيث يقول عن نفسه: "ما إن دخلت على شيخي ومولاي السيد عبد الحكيم الأرواسي، أحسست بشيء يهزُّني في أعماقي، وعندما سمعت كلامه تغيرت حياتي كليًّا.. لقد مسح الشيخ عن قلبي كل الأدران والحجُب التي غطت عليه".

ومن ثم فقد فتن سلطان الشعراء الأتراك نجيب فاضل بالمتصوفة، وخصص لهم كتابًا بعنوان "حدائق التصوف"، وهم أقطاب المتصوفة في ذلك الوقت الذين ضحوا بأنفسهم من أجل النور الإلهي. فراح يخلدهم في هذا الكتاب، أمثال الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي، والشيخ العارف بالله عبد الحكيم الأرواسي، والشيخ أسعد أفندي، وغيرهم.

وتميزت كتابات نجيب فاضل بالتنوع، والاختلاف، والجمع بين عبق التراث العربي شعره ونثره، وحداثات العالم الشعري في تركيا آنذاك؛ رغبة في تغيير الواقع ودفاعا عن حرية الشعب التركي، من أجل معتقداته وعاداته وتقاليده.

سيرة الأنبياء والأولياء

تعد السيرة الشعرية، تقنية من التقنيات التي احتفى بها الشعر التركي المعاصر. وهذه الظاهرة لم تقتصر على الشعر التركي فقط، بل سبقه الشعر العربي القديم والحديث. وأظن أن الشعراء الأتراك تأثروا بالشعر العربي تأثرًا واضحًا في هذا الجانب، ويمكن القول إن السيرة الشعرية هي مجموعة من الأحداث المتعلقة بشخصية من الشخصيات المرتبطة بالذات الشاعرة، مثل شخصيات الأولياء والأنبياء والعبَّاد الربانيين، وغيرهم.. وكان لها أثرها الواضح على الشاعر نفسه، وقد توطدت بها من خلال الأحداث والتغيرات والتقلبات.. أثرت هذه الأحداث في الحياة التي تعيشها الذات الشاعرة، أو تركت أثرًا واسعًا في نفسها.

تجلى مفهوم السيرة في "ديوان السلام"، (لوحات من السيرة المقدسة)، فقد صدرت الطبعة الأولى من ديوان السلام في عام ١٩٧٢، والثانية في ١٩٨٢. والديوان يتكون من ثلاثة وستين نصًّا، يتحدث في كل قصيدة عن ملمح من ملامح سيدنا محمد ﷺ، مرتكزًا على مناح عدة، يقول نجيب فاضل:

كان الزمان بَكَرة ملفوفة فُكَّتْ خيوطها..
النجوم سكرى، والأرض أظلم ليلها،
غريبة ظلالها.. الزمان كأسرار البندول،
متناقض الأطوار، لا أول له ولا آخر..
سيف أو مقص، قطع اليوم في لحظة،
كل شيء في ذلك اليوم له أول وآخِر.

المشهد السابق من المشاهد الوجودية التي تحتفي بفكرة الوجود الإنساني داخل الحياة الأرضية، ومن ثم يطرح النص الشعري مجموعة من الأفكار الفلسفية العميقة والأسئلة التي تبوح بها الذات الشاعرة للملكوت المطلق الذي لا إجابة بشرية مقنعة فيه.. كما تسيطر الروح البائسة والذات المتناقضة على سطح النص الشعري، وكأننا أمام حوادث هلامية ستحدث في هذا العالم الأرضي البائس.. وتلكم الغاية والهدف

hiragate.com

من هذا التوحد في البشارة الأخيرة، وهي أن الشاعر نجيب فاضل يستدعي لحظة ميلاد النبي محمد ﷺ في مكة، وقبل هذه اللحظة كان الزمان غير منتظم والحياة قاسية، والمكان ظلام.. وعندما أتى النبي عليه أفضل الصلاة والتسليم إلى الدنيا، تغير حال الناس وحدثت المعجزات الكبرى.. والأرض تسبح وتدعو الله كثيرًا، وأخذت ترسل الدعاء للسماء شكرًا لله واعترافًا بفضله وقوته وعظمته.

وتعتمد القراءة الثقافية في شعر نجيب فاضل على تلك الرؤية التي نسجها الشاعر عن تراثنا العربي، وكيف كانت الحياة قبل بعثة النبي محمد ﷺ، تلك النظرة التي اختلطت بها مشاعر الذات، وحاولت الاحتماء بما هو أكبر وأعظم من الذات الضعيفة التي يسطِّر عليها الحزن والقهر. كما يقول نجيب فاضل في قصيدة النور:

نور مطلق منذ القدم
كان له وجود والدنيا عدم..
تضرع آدم إلى الله لما غوى
أن يغفر له بجاه نور المصطفى..
في جبين آدم نور مبين
انتقل من بعده لأحد المرسلين
لا يحجبها حرف، أو ظرف، أو حجاب
ثم انتقل النور الإلهي وسرى..
لست أدري ممن؟ لمن بين الورى؟
من إبراهيم وإسماعيل،
وغيرهما ممن اجتبى
وظل ذلك النور كاللواء
الذي ينتظره منذ الأزل
ذاك النور سرّ يفوق الضياء
أظهر الموجودات في جلاء وخراب ويباب..
النبي الخاتم النبي الخاتم
خرج منه النور وإليه عاد
فأشرقت به الوهاد والنجاد

إن الحديث عن النور السماوي الذي انبثق من السماء إلى الأرض، من الأحاديث التي خلبت العقل البشري، وجعلت العقل الجمعي في حيرة من أمره وظل يطرح أسئلة لا إجابة لها في العالم الأرضي،

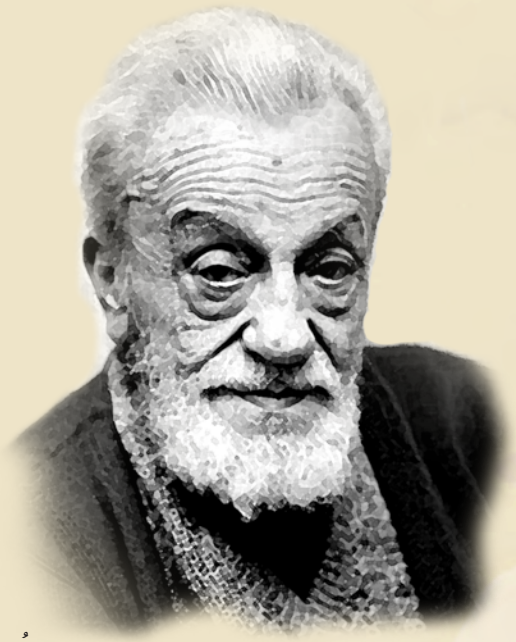

نجيب فاضل كِيصَكُورَك

ومن ثم فقد جاء الحديث عن النور الإلهي في هذا النص، مرتبطًا بالحديث عن النور البشري المتجسد في شخصية سيدنا محمد ﷺ.. فهو نور من عند الله ﷻ، فيه صفات البشرية كما حدثنا القرآن الكريم مرارًا وتكرارًا عن خَلْقِ إمام الأنبياء محمد ﷺ وخُلُقه.

تعتمد الذات الشاعرة على طرح قضية النور وماهية هذا النور، من خلال إثارة الأسئلة الغامضة.. ويعد النور رمزًا مهمًّا لدى المتصوفة ومنهم نجيب فاضل الذي اتحد واستمسك بهذا النور؛ لأنه بمثابة الملاذ الحقيقي لحرية الذات من براثن الجهل والضياع، ولأنه يدافع عن حقوق الإنسانية بصفة عامة.

ولهذا فإن الشاعر نجيب فاضل يعدّ من أهم الشعراء المتصوفة أيضًا في الأدب التركي الحديث. ولا تخلوا دراسة عن الشعر التركي من نصوصه. ومن ثم فقد كان لزامًا علينا نحن العرب والمسلمين، أن نتطلع إلى آفاق أخرى في ظل حوار الحضارات والثقافات المتعددة، التي تؤدي فيما بعدُ إلى حوار الشعوب، من خلال الشعر والفن. ■

(*) كاتب وأكاديمي مصري.

الهوامش

(١) مقاطع محمد عاكف أرصوي الشعرية من تصرف المحرر.

hiragate.com

قطوف
فتح الله كولن

رجل يسبح
دون أن يعرف السباحة

إن حالنا في اقتفاء أثر الأنبياء ومن سار على دربهم من العظماء، يشبه حالَ مَن ألقى بنفسه في البحر دون أن يعرف السباحة، ظل يتخبّط هنا وهناك دون جدوى.. فلما شاهده أهل الحرفة قالوا: "هذا لا يعرف السباحة، هلمّوا بنا ننقذه". هذا حال مَن أراد السير في طريق العظماء، يقول: "اللهم لا طاقة لي على السير في هذا الطريق، ولكنني أحب أهله، نذرت نفسي للسير معهم، نظرتُ إلى الأنبياء العظام والأولياء الفخام والأبرار الكرام فوجدتهم يسبحون في هذا البحر، كل أملي يا رب أن أكون معهم وإن كنتُ لا أجيد السباحة مثلهم"، ثم يلقي بنفسه في هذا البحر.

إن الله ﷻ لن يترك عبدًا توجَّه إليه بهذا الشعور أن يغرق، بل سيأخذ بيده وينقذه، ويفتح له آفاقًا لم تكن في حسبانه؛ يجعل من اللمعة شمسًا، ومن القطرة بحرًا، ومن لا شيء كلَّ شيء.. المهم أن نكون على هذا الوعي، نمحو ذاتنا، وننسلخ من دعوى الأنانية.

الكتاب الأوحد على مستوى العالم

القرآن "أمانة".. أمانة تتطلّب حفظَ "نصوصها"، وفهم "معانيها" في العقول والقلوب بشكلٍ صحيح. فمن لم يعرف معاني القرآن فما عرف قيمته حقًّا. الحفاظ على القرآن لا يكون بالاستماع إليه أو قراءته فقط.. الحفاظ عليه يعني إحياء معانيه في أرجاء المجتمع والحيلولة دون ذبول تلك المعاني أو

شـحوبها فـي القلـوب، وبذل كل ما في الوسـع لجعله "الكتـاب الأوحد" على مستوى العالم. فإن لم نحافظ عليه ضمن هذا المعيار، واقتصرَ حفظنا له على وضعِـه فـي أغطيـة حريرية مزخرفة تُعلَّق فوق رؤوسـنا في حجـرات النوم، فقد فرّطنا في حقه وخُنّا الأمانة.

المواجهة العميقة

نحـن أحـوج ما نكـون إلى إحياء الليالي.. نحن بحاجة إلى أن نخلو إلى الله ﷻ، بحاجـة إلـى يقظـة قلبيـة حقيقية بين يدي الله ﷻ. نحـن بحاجة إلى أن نلح في عبوديتنا على معنى "الإحسـان". نحن بحاجة إلى ذلك أشـد الاحتياج. إزاء هـذه العواصـف المهولـة التي تعصف حولنا، إزاء تسـونامیات متعاقبة وأعاصير مروعة، إزاء عجز الأشجار العملاقة عن الصمود وتهاويها أمامها، إزاء كل ذلك نحن بحاجة إلى أن نتمسك بأوامر الله بعمق وجدية أكثر.

الأشـجار التـي لا تمتـد جذورهـا فـي أعماق التربـة تنهار مـع أدنـى عاصفة. عليكـم أن تعمقـوا العلاقـة مـع الله بـلا توقـف، كونـوا مثـل الأشـجار الضاربـة بجذورهـا فـي الأعمـاق. الذيـن يهاجمونكـم اليوم يتعمقـون في ممارسـة العداء والظلم ضدكم، يتعمقون في حبك المكائد لإبادتكم. فما لم تواجهوهم بالعمق نفسـه فـي علاقتكـم مـع الله، ما لم تصمدوا، وتواظبـوا على الصمود، تقذف بكم العواصـف بعيـدًا، وتتناثـرون كأوراق الخريـف. لقـد شـملكم الله بحفظـه حتـى اليـوم. إذا بقيتـم على هذ الإخلاص والتجرد، والأداء الرفيـع، والسـلوك العميق، والإيمان بـ"الغاية الحلم"، والثبات عليها والتمسك بها، فإن الله سيقابل كل خطوة إليه بخطوات، سيقابل المشي إليه بالهرولة.. تصنعون شيئًا بحجم قطرة فيجعلها عشر قطرات، بل مائة قطرة حسب إخلاصكم وعمق نيتكم.

حقيقة الشوق إلى الجنة

عندنـا رجـاء واحـد: اللهم شـوقًا إلى لقائك ولقاء حبيبك تغنينا به عن الشـوق إلى ما سواك. اللهم امنحنا شوقًا إليك وإلى حبيبك يأخذ بألبابنا، شوقًا يمحو من قلوبنا كل شـوق إلى غيرك. أيها الرحيم الأوحد، أفرغ قلوبنا من جميـع الأشـواق الأخرى، حتى الشـوق إلى الجنة أزله إن كان شـوقًا لِذاتها. أجل، الجنة لها قيمة، لكن قيمتها ليست لذاتها، نحن في شوق إليها لأن جمال الله هناك، ورضوانه هناك، والأنبيـاء العظـام هنـاك، ومن أحبهم الله هناك. شـوقُنا إلى الجنة من أجله سـبحانه، وإكرامًا لهؤلاء العظماء. وإلا فحُبّنا الذي نهيم فيه هو الله ﷻ، الله. ■

(*) الترجمة عن التركية: نوزاد صواش. هذه النصوص مترجمة من دروس الأستاذ المنشورة.

صالح القاضي*

عندما يكون الخيال واقعًا

الواقع الافتراضي

إن أدوات التعليم منذ تطور الحضارات، كانت تتمثل في نقل المعلومات والمعرفة المتراكمة عبر الأجيال السابقة، وذلك من خلال الكتب التعليمية أو المخطوطات أو المعلمين المحترفين، ومن ثم اكتساب تلك المعرفة المتراكمة بالمشاهدة التجريبية لهم في معاملهم المتواضعة. ولكن

الأمر اختلف مع بداية القرن الواحد والعشرين، حيث أصبح التلفاز متاحًا للجميع وكذلك شرائط الفيديو، ومع الأيام أصبحت مشاهدة البرامج التعليمية -سواء التجريبية أو النظرية- أداة من أدوات التعليم. ولكننا كحضارة إنسانية قفزنا قفزات علمية كبيرة خلال الخمسين عامًا الماضية، حيث غدت شبكة الإنترنت إحدى أهم الوسائل المعرفية والتعليمية اليوم، وأداةٍ من أدوات التعليم والبحث، وتداول المعلومات العلمية في مختلف فروع العلوم والمعرفة.. ولكن مؤخرًا بدأت الإنسانية تطور وسيلة لم تكن تخطر على بال السابقين، بل حتى الحديث عنها سابقًا، يعدّ نوعًا من الخيال أو الحلم.. ولكن هذا الخيال تحول في يومنا هذا إلى واقع؛ فتقنية "الواقع الافتراضي" تعد اليوم أداة من أدوات التعليم.

لأفكار علمية طرحت في القرن ١٩، إلا أنها مؤخرًا تطورت لتصبح أكثر تعقيدًا، وفي الوقت ذاته متاحة لكثير من مستخدمي شبكة الإنترنت. وقد طور المبتكرون أيضًا أجهزة أخرى، مثل نظارة الواقع الافتراضي، والممشاة متعددة الاتجاهات، وقفازات خاصة تعطي تجربة واقعية لذلك الواقع الافتراضي.. كما قام مصممو البرامج، بصناعة كثير من البرامج المختلفة؛ فلدينا اليوم تطبيقات للحاسب الآلي تم تصميمها بتقنية الواقع الافتراضي في مختلف العلوم، كالتطبيقات الطبية، والهندسية، والأثرية، والترفيهية، والرياضية، والفنية.

الواقع الافتراضي ودوره التعليمي

تقنية الواقع الافتراضي من الممكن أن تتحول إلى أداة تعليمية مهمة في الفصول الدراسية. فعلى الرغم من أن

ما هو الواقع الافتراضي؟

الواقع الافتراضي كما عرّفته وكالة ناسا لأبحاث الفضاء، هو استخدام تقنيات الحاسب الآلي، لإحداث تأثيرات ثلاثية الأبعاد تفاعلية، تعطي المشاهد إحساس مكاني للأشياء، أيْ إن الواقع الافتراضي محاكاة للحاضر، تجعل مستخدِم نظارة الواقع الافتراضي، يشعر وكأنه داخل ذلك الواقع المصوّر. ولتحقيق ذلك يدمج العلماء بين علوم الهندسة والتصميم والحاسب الآلي، والغرض الأصلي الذي تم اختراع الواقع الافتراضي من أجله، هو محاكاة ظروف وأحوال الكواكب الأخرى طبقًا للبيانات المتوفرة عنها.

ورغم أن تقنية الواقع الافتراضي تطورت نتيجة

تلك التقنية لا زالت في مرحلة التطوير، إلا أن كثيرًا من الخبراء مستبشرون للفائدة التعليمية التي من الممكن أن تحققها تلك التقنية. فمعاناة المعلمين اليوم تتمثل في عدم اهتمام الطلاب بالمادة العلمية التي يتم تدريسها داخل الفصول، وتقنية الواقع الافتراضي ستجعل الطلاب منتبهين للمادة العلمية المعروضة عليهم. إلا أن استخدام تلك التقنية لا زال ينفذ على نطاق ضيق اليوم.

وبالرجوع إلى الإحصاء الذي قامت به شركة سامسونج للإلكترونيات عام ٢٠١٦ في الولايات المتحدة، تَبين أن ٢٪ فقط من المعلمين، يستخدمون تلك التقنية في الفصول الدراسية.. في حين لفتت هذه

الدراسة النظر إلى أن الكثير من المعلمين يعتقدون أن تلك التقنية ستكون جاذبة لانتباه الطلاب ومحفزة لهم على التعلم.. والحقيقة أن جيل اليوم من الطلاب يتعامل بصورة واسعة مع تقنية الديجيتال، وتلك التكنولوجيا المتطورة غيرت شكل تلقي الطلاب للمعلومات، وهو ما يجعل جيل اليوم مستعدًّا للتعلم من خلال أدوات تعليمية تكنولوجية حديثة، كتقنية الواقع الافتراضي.

هل للواقع الافتراضي فوائد؟

وطبقًا لمجتمع مستخدمي ومطوري تقنية الواقع الافتراضي، فإن هناك فوائد عديدة لاستخدام تقنية الواقع الافتراضي داخل الصفوف الدراسية، منها الحصول على تجربة تعليمية فعالة.. والاحتكاك المباشر مع المادة العلمية، تمكِّن الطلاب من المحاكاة وتطوير معلوماتهم حول تلك المادة العلمية.. والفهم الأكثر دقة ووضوحًا للمفاهيم والنظريات المستعصية على فهم الطلاب.

وطبقًا لتجربة استخدام منصات الواقع الافتراضي الحي في الصين، تَبين أن تقنية الواقع الافتراضي تعطي الطلاب فرصة لإطلاق قدراتهم الكامنة.. وقد أصدر العاملون على هذه التجربة تقريرًا تحت عنوان "تأثير تقنية الواقع الافتراضي على الأداء الأكاديمي"، بيَّنوا فيه أن لتقنية الواقع الافتراضي تأثيرًا إيجابيًّا على الطلاب والمعلمين في تحسين ذاكرتهم الإدراكية.. وقد ظهر أن علامات الطلاب ارتفعت وزادت ذاكرتهم المعرفية قوة عندما تم استخدام تقنية الواقع الافتراضي. "كلما كان هناك ارتباط شبه واقعي مع المادة العلمية، طور المتعلم علاقة خاصة مع المادة العلمية، وهو ما يسهل كثيرًا في

ترسخ تلك المادة العلمية في ذهن المتعلم".

الجوانب السلبية المتوقَّعة

وعلى الرغم من الفوائد العديدة التي تحملها تقنية الواقع الافتراضي إلى المجتمع، إلا أن لتلك التقنية -كغيرها من المخترعات التكنولوجية- جوانب سلبية أيضًا على المجتمع. لم يقم الباحثون بعد بإعداد دراسات مفصلة عن التأثيرات الاجتماعية لتقنية الواقع الافتراضي، إلا أن الباحثة "بولا هيكس" تحذر من أنه كما للتقنية فوائد للبشر من خلال التجربة شبه الواقعية، إلا أنها -كغيرها من التكنولوجيا- تؤدي إلى ضعف القدرة على التواصل بين البشر وهو أمر مهم للغاية.. ورغم أن تقنية الواقع الافتراضي يمكنها محاكاة الكثير من البيئات المختلفة، إلا أنها لا يمكن

لقد بيّنت الدراسات والبحوث العلمية أن لتقنية الواقع الافتراضي تأثيرًا إيجابيًّا على الطلاب والمعلمين في تحسين ذاكرتهم الإدراكية والمعرفية.

أن تحاكي القدرة على التواصل العفوي بين البشر.

الضرر الآخر المتوقع لتقنية الواقع الافتراضي، هو الإدمان على استخدامه، وهذا الضرر لا يحتاج الخبراء أن يحدثونا عنه.. فكثير من البشر في عالم اليوم، مرتبطون بهواتفهم النقالة بصورة غير صحية على الإطلاق، إلا أن تقنية الواقع الافتراضي لا زالت باهظة التكلفة، ولا يستطيع التمتع بها إلا شريحة قليلة في عالم اليوم.

ولكن مثل كل التقنيات الحديثة، فتطبيق التقنية يحتاج إلى وقت للضبط والتنظيم، سواء من خلال القوانين، أو من خلال العناصر الأخلاقية للمحتوى المعروض عبر التقنية. كما أن تقنية الواقع الافتراضي لا زالت تحتاج إلى أبحاث أكاديمية حول فوائدها وأضرارها. وطبقًا للباحثة "فيونا ماكفوي"، فتقنية الواقع الافتراضي تلفت نظرنا إلى عدة مسائل مرتبطة بتأثيرات التقنية، مثل الضعف الحسي، والعزلة الاجتماعية، والمبالغة في تقدير القدرات الذاتية، والمشاكل النفسية، والظواهر الإجرامية، والتحايل، وضعف الخصوصية.

وفي النهاية يمكننا القول، إن التنظيم القانوني والأخلاقي لتقنية الواقع الافتراضي، ستقود إلى تقليل المخاطر والأضرار التي من الممكن أن تسببها التقنية، وستزيد من منافع استخدام تقنية الواقع الافتراضي كأداة فعالة للتعليم داخل الفصول الدراسية.. ولا شك أننا سنرى خلال الأعوام القادمة، مزيدًا من الدراسات الجادة حول استخدام تقنية الواقع الافتراضي. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

المراجع

(1) Kolo, k. (2017, december 15) virtual reality: the next generation of education, learning and training. Retrieved February 28, 2018, from https: //www.forbes.com

(2) https://youtube/zGGVYT0cMHg

د. الشريف حاتم العوني*

كيف تكون غالب أفكاري صحيحة؟

١

الفكرة الصحيحة تُنتج أفكارًا صحيحة، وأما الفكرة الخاطئة فلا تقتصر على إنتاج الأفكار الخاطئة، بل إنها تقوم بهدم الأفكار الصحيحة وتقويضها، إلا في حالة واحدة فقط؛ فيمكن في هذه الحالة وحدها للفكرة الخاطئة، أن تُنتج أفكارًا صحيحة، وهي فيما لو فكّرتَ في تصحيح الفِكرة. وهو أمر لا يمكن أن يتم إلا بالفكرة الأولى نحو ذلك، وبالخطوة الكبرى، ألا وهي الاعتراف بالخطأ الذي هو أهم خطوات التصحيح.

ولقد جربتُ ذلك كله مرارًا.. إذا بدأتُ بالفكرة الصحيحة، وزدتُ تأملاً لها وتفريعًا عليها، وجدتُ أنها تزداد رسوخًا من جهة، ومن جهة أخرى فإنها تَدُلُّني على نتائج أخرى ربما تكون أكثر إبهارًا وأشد إبداعًا من فكرتي الأولى. وغالبًا ما تكون هذه النتائج الجديدة غيرَ مقصودة مني يوم أن وصلت إلى الفكرة الصحيحة الأولى، بل لم تكن هذه النتائج أصلاً في حسباني عندما هُديتُ للفكرة الأولى.

وهذا غريب جدًّا؛ إذ كيف أصل لغاية لم أكن أقصدها أصلاً؟! حتى كأن تلك الغاية هي التي قصدتْكَ، وهي التي تجيء إليك! نعم، إلى هذا الحد من الغرابة تصل هدايةُ الحق للحق، وتوفيقُ الصواب إلى الصواب.

بل من المواقف الغريبة التي مرت عليّ في هذا، أني ربما درستُ مسألة فوصلتُ فيها إلى فكرة صحيحة. ثم بعدها بمدة أدرس مسألة أخرى لا أتصور ولا أستحضر أن لها علاقة بالمسألة السابقة، وأتوصل في المسألة الجديدة إلى النتيجة التي أحسبها صحيحة. ثم بعد ذلك -ولربما بعده بزمن- أكتشف علاقة المسألتين ببعضهما، وأن نتائج كل واحدة من المسألتين تتأيد وتتأكد بنتائج الأخرى، وأن بينهما ترابطًا قويًّا، بل ربما كان ترابطًا ملزِمًا، فلو اختلفت نتائجُ إحدى المسألتين عما هي عليه في دَرْسي لها، لكان ذلك تناقضًا يوجِب إبطال كلا النتيجتين أو إحداهما.

والأغرب من ذلك والأهم، أن النتائج الصحيحة المتولِّدة من الفكرة الصحيحة، لا تنقطع أبدًا ولا تزال تتوالد.. فهي لن تنقطع حتى تنقطع أنت عن تأملها

واستخراجِ متعلَّقاتها. فالفكرة الصحيحة أمٌّ لا تعرف سنَّ اليأس، فهي أمٌّ ولودٌ أبدًا ما استَوْلَدْتَها.

ولا أستطيع أن أفسر هذه الظاهرة الكونية اليقينية الغريبة، وهي ظاهرةُ تَوالدِ الأفكار الصحيحة من بعضها، إلا بناءً على أن الكون كلَّه مخلوق بالحق وللحق. ولذلك قال تعالى مبينًا هذه الحقيقة الكونية: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾(المؤمنون:٧١)؛ فلولا أن السماوات والأرض ومن فيهن مخلوقون بالحق وللحق، ولولا أن صلاح الكون قائمٌ على الحق الإلهي المطلق الذي خُلق عليه، لما تَغيّر شيء باتباع أهواء المبطلين، ولما فسد الكون بذلك، إذ إنما يفسُد الصالح، ولا يَحيد الباطلُ إلا بعد وجود صراط الحق المستقيم. وكيف لا يكون الكون مخلوقًا بالحق وللحق وخالقه هو الحق سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾(الأنعام:٧٣).

ولذلك كان كل حق في هذا الكون يهدي لحقائق لا تنتهي. ولو لم يكن ذلك كذلك، لما هدتنا كل حقيقة فيه إلى حقيقة أخرى، ولما ارتبط كل حق فيه بحق آخر، إلى نهاية لا نعرف نهايتها من الحقائق إلا باستحضار قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(الإسراء:٨٥).

وأما الفكرة الخاطئة، فهي فكرة بتراء مبتوتة، فهي أمٌّ عاقر لا تلد أبدًا وإن ظنها المتعجل أمًّا للأفكار الخاطئة، وأنها تلد أفكارًا خاطئة. واللطيف (غير اللطيف) أن هذا الظن خطأ جديد، ربما يكون هو الخطأ الوحيد المتولّد من الخطأ. فالخطأ لا يلد خطأ ولا صوابًا، وإنما يجمع الخطأُ بعضَه إلى بعضه، وتجذب فيه الفكرةُ الخاطئة أفكارًا مشتتة لا أواصر حقيقية بينها، إلا أن المتعجل قد يظنها أفكارًا مترابطة، والواقع أنها لا ترتبط إلا برباط واحد وهو رباط الخطأ، ورباط الخطأ خطأٌ ولا بد. ولذلك فهو رباطٌ متوهَّم، ما أشبهه بملجأ لأبناء الخطيئة الذين لا ارتباط بينهم إلا في كونهم أبناء الخطيئة[1].

والفرق بين توالد الفكرة الصحيحة وتجاذب الأفكار الخاطئة، فرقٌ ظاهرٌ ظهورَ الفرق بين الحق والباطل. فتوالدُ الأفكار الصحيحة تَوالُدٌ طبيعيٌّ، ولذلك فالترابط بين أفكاره مفهومٌ لقوته ووضوحه، ولذلك -أيضًا- فإن النفس تنشرح له، وبه تتضح رؤية صاحبها، ويزداد يقينًا من صحة فكرته الأولى. وأما تجاذُب الأفكار الخاطئة فهو تَجمُّع مشبوه مصطنع، لا يكاد يستطيع أحدٌ -غير صاحب تلك الأفكار حسب توهمه- أن يعرف وجه ترابطها وسبب تَجمُّعها، وهو تَجمُّع تضيق به النفس وتُظلم به الرؤية، وكأنه تَكاثُفٌ لحُجُبٍ من الظلام، فيزيد صاحبَه شكًّا في فكرته الخاطئة الأولى إن لم يزده يقينًا من خطئها.

ولذلك كانت الفكرة الخاطئة فكرة عاقرًا لا تلد أبدًا، كما كانت من قبل فكرةً لا تعرف لها أمًّا ولا أبًا. فهي فكرةٌ بتراء مبتوتة بلا أصل ولا فرع.

فلا تستغرب بعد ذلك إن قلنا: إن الفكرة الصحيحة الوحيدة التي يمكن أن تتولد من الفكرة الخاطئة، هي فكرة الاعتراف بخطئها كما سبق، والتي سيتولد عنها فكرة صحيحة أخرى هي فكرةُ تصحيحها، ليكون هذا التصحيح هو الحفيدَ الشرعيَّ الوحيدَ للفكرة الخاطئة.. ولكن لصعوبة هذا المخاض الذي يبدأ باعتراف خطير وكبير، ألا وهو الاعتراف بالخطأ، والذي ينتهي بتصحيحه سيكون الوليد الذي يخرج منه وليدًا معجزًا في نفْعه وفي دلالته للحق؛ لأن ولادته كانت خارقة للعادة، ما أشبهها بإخراج الحي من الميت.

فهنيئًا لمن عرف حقًّا فاستنطقَه فأنشأ الحقُّ له ديوانًا كبيرًا من فصيح القول وبليغ الكلام الناطق بالحق والصادح بالصدق، فبه يهتدي ويهدي. ورحمةً بمن وقع على باطل فاستنطقه فأوقعه في دَوِيّ الصمت وضجيج السكوت المطبِق، فبه يَضِل ويُضِل. وما أسعدَ من عرف حقًّا فاستولده، وما أتعس وأشأم من وقع على الباطل فما زاده إلا عقمًا، وكان كشانئ النبي ﷺ: مقطوعًا مبتورًا: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾(الكوثر:٣). ■

(*) كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى/ المملكة العربية السعودية.

الهوامش

(١) ولا أقصد بهذا التشبيه تحقيرًا لبريء مظلوم يعاقَب من بعض المجتمعات الجاهلة بجريرة غيره، وإنما أردتُ به استثمار شعورٍ خاطئ موجود تجاه أبناء الخطيئة (المولودين من غير نكاح شرعي)، مع وجهِ شبهٍ مؤلم بينهم وبين الأفكار الخاطئة، وهو جهالة الأصل والمنشأ.

hiragate.com

أ.د. بركات محمد مراد*

ماذا نفعل عندما يغار أطفالنا؟

١ اهتم الباحثون النفسيون بموضوع الغيرة عند الأطفال، ووجدوا أن ثمة مظاهر لهذه الغيرة تتجلى بالمظاهر النفسية، والجسمية، والاجتماعية. وكثير من الأطفال -في منتصف عامهم الثاني- يصدر عنهم سلوك يدل على الغيرة. والغيرة هي أحد المشاعر الطبيعية عند الإنسان كالحب والألم، ويجب أن تتقبلها الأسرة كحقيقة واقعة وتسعى -في نفس الوقت- إلى منع نموها.. فقليل من الغيرة يفيد الطفل ويحفزه إلى التفوق، وكثيرها يفسد الحياة، وخاصة حين تصبح انفعالاً بغيضًا يؤدي إلى شقاء صاحبه، كما يسبب التعاسة للأشخاص المحيطين به، ويطغى على الشخصية طغيانًا يؤدي إلى عسر شديد في توافق الفرد مع المجتمع الذي يعيش فيه.

وقد عرّف الأخصائيون الغيرة، بأنها انفعال مركب ينشأ من تفاعل الإحباط والقلق. وهي عاطفة قوية قد تكون صغيرة حينًا، ومؤذية في أحيان أخرى. والشعور بالغيرة يبلغ أشده عند الطفل الصغير، لأنه عندما يشعر بهذا الإحساس تجاه طفل آخر، لا يستطيع أن يفسر ما أصابه، مما يحوّل حياته إلى جحيم فترة طويلة من الزمن، ولا بد من وجودها ليتمكن الطفل من تحقيق ما يصبو إليه إذا ما لمس أحد الأطفال يتفوق عليه في مجال يحبه، ويعمل جاهدًا للوصول إليه.

وليس هناك من هو أكثر شقاء وتعاسة من الطفل الغيور، فهو يشعر بأنه أخفق في الحصول على الرعاية والحماية من شخص مولع به ولعًا شديدًا، لذا فهو يختزن أحزانه ويبالغ فيها حتى يشعر بأن الدنيا كلها تعمل ضده. ولا شك أن الغيرة المفرطة، تثير عند الطفل الحقد والغضب، وهي من أهم العوامل التي تؤدي إلى ضعف ثقة الطفل بنفسه، أو إلى نزوعه للعدوان والتخريب.. وما السلوك العدائي والأنانية والارتباك والانزواء والتبول اللإرادي، إلا أثر من آثار الغيرة على سلوك الأطفال. وقد تصل الغيرة إلى حد التحطيم والحزن، وأحيانًا إلى الاكتئاب، بل قد تؤثر عليه في المستقبل، فيكون دائم الخلاف مع محيطه ومجتمعه.

ولا يخلو تصرف أي طفل من إظهار الغيرة بين الحين والحين، وهذا لا يسبب إشكالاً إذا فهمنا موقف الطفل وعالجناه علاجًا سليمًا. أما إذا أصبحت الغيرة عادة من عادات السلوك تظهر بصورة مستمرة، فإنها تصبح مشكلة، ولا سيما حين يكون التعبير عنها بطرق متعددة. وتؤكد الباحثة "منى السعيد"، على أن الغيرة في الطفولة المبكرة تعتبر شيئًا طبيعيًا، حيث يتصف صغار الأطفال بالأنانية وحب التملك وحب الظهور، لرغبتهم في إشباع حاجاتهم، دون مبالاة بغيرهم أو بالظروف الخارجية. ونحن نرى في هذه الغيرة -خاصة حين تكون معتدلة- نوعًا من المحافظة على الذات، وتدعيمها يتم بصورة غير رشيدة تتناسب مع مرحلة النمو الأولى.. ولذلك فقمة الغيرة تحدث فيما بين ٣-٤ سنوات، وتكثر نسبتها عند البنات عنها عند البنين، وتزداد أيضًا في الأسرة الصغيرة التي يكون التركيز فيها

علاج الغيرة لن يكون بمحاربتها وقمعها، بل بتنمية العواطف المقابلة لها؛ عواطف الحب والغيرية التي تحتويها فتقوي شخصية صاحبها، وتجعله قادرًا على مواجهة المنافسة في المستقبل.

على الطفل من ناحية الوالدين، كما تقلّ الغيرة إذا زاد الفارق الزمني بين الطفل وأخيه أو أخته.

ما هي أسباب الغيرة؟

ويمكن أن نجمل أسباب الغيرة في عدة أسباب هي:

١- الشعور بالنقص وضعف الثقة بالنفس: ويعود ذلك إلى:

• ضعف الطفل وقوة من حوله يشعرانه بضآلته وضعفه، والقصور الجسماني عند بعض الأطفال متمثل في ضعف الطفل بسبب سوء التغذية، وفقدان الشهية، وتسوس الأسنان، والتهاب اللوز، أو في وجود تشوهات خلقية وعيوب جسمية كالشلل، أو العرج، أو النحافة، أو البدانة، أو فرط القصر، أو فرط الطول، أو فقدان أحد الأطراف، أو فقدان الحواس أو بعضها.

• السلطة الوالدية المتمثلة بالشدة الزائدة والقسوة والعقاب لأتفه الأسباب، وإهانة وتحقير الأبناء أمام الإخوة والأقارب والأصدقاء وغيرهم، وإصرار الوالدين على الطاعة العمياء من قبل الأولاد، دون مناقشة أو تفاهم.

• سيطرة الاضطرابات والخلافات والمنازعات بين أفراد الأسرة.

• عامل اليتم، ولا سيما هي من العوامل التي تزيد من أحزانه، لذا كان اهتمام الإسلام باليتيم بغية السعي لجعله عضوًا نافعًا في المجتمع: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ﴾(الضحى:٩)، و﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾(البقرة:٢٢٠).

• الفقر، وهذا العامل بالذات يجعل صاحبه ينظر إلى المجتمع نظرات الضيق والكراهية، مما قد يصيبه بأمراض من مركبات النقص.

hiragate.com

٢- ولادة طفل جديد: وهذه الظاهرة تجعل الطفل يعتدي على الذي شاركه محبة والديه، لشعوره بأن المولود الجديد أخذ حقًا من حقوقه. وعلاج هذا الأمر يتم بالموازنة الصريحة بين الأطفال، سواء في المنزل أو في المدرسة، حيث السخرية بمقدرة الطفل وموازنتها بمقدرة طفل آخر، تبعث فيه شعورًا بالمرارة والحقد والقصور والعجز.. إضافة إلى تحقيق العدالة في توزيع الحب والاهتمام بين الأبناء.

اختلاف معاملة الابن عن البنت في بعض الأسر، ينمي عندهن غيرة تكبت وتظهر أعراضها في صور أخرى في مستقبل حياتهن، ككراهية الرجال عامة وعدم الثقة بهم.. كما أن إغداق امتيازات كثيرة على الطفل المريض، من اللعب والحلوى، يثير الغيرة في الإخوة الأصحاء، فتبدو مظاهره في تمني المرض، وكراهية الطفل المريض.

مظاهر الغيرة

ثمة عوامل عديدة في تحديد تلك المظاهر التي تتجلى الغيرة عبرها؛ فالأطفال في عامهم الثاني تكون مظاهر الغيرة عندهم الجلبة والضوضاء بغية التوجه إليهم وإزالة ما يسبب ضيقهم من موقف اعتبروه يهدد طمأنينتهم، ثم ينصرفون إلى الهجوم والاعتداء عند تقدمهم في العمر، وحينما يصبح هؤلاء أكثر نضجًا ودراية، يتوجهون إلى مضايقة من انصرف عنهم، ويعملون على إغاظته كنوع من الدفاع عن النفس، حتى يتخلى هؤلاء عن الفرص التي أتاحوها للدخلاء الذين شاركوهم في أمور يعدونها من ممتلكاتهم. ثم تأخذ الغيرة أشكالاً أخرى أقرب إلى الحنكة والتكتم والدهاء بإخفاء ممتلكاته، أو تلفها قبل أن يعرف أهله أنه هو الذي يفعل ذلك، وقد يلجأ إلى الشتم والعنف والغضب ممن يضايقه.

إن أولى مراحل الإحساس بالغيرة لدى الطفل، تبدأ داخل أسرته عندما يبدي الأهل اهتمامًا بأخيه الآتي حديثًا إلى العائلة. هنا تبرز لدينا المظاهر الاجتماعية للغيرة، حيث يشعر الطفل بأنه أُهمل ولم تعد له المكانة التي كانت له عند الأهل، وهذا الشعور يمكن أن يشعر به الطفل المبكر، عندما يولد للعائلة طفل آخر، ويبدأ بأخذ كل الاهتمام من الأبوين، وهذه الحالة تولّد عند الطفل عدوانية وعداء، ويتعمّد إتلاف الأشياء والممتلكات، ويتطور انفعال الغيرة لديه في كافة مراحل حياته.. ويبقى الطفل على هذه الحالة حتى يبلغ سن السادسة من عمره. وخلال هذه الفترة يبدأ الطفل يسلك سلوك النكوص، ويبدأ باستخدام أساليب بدائية (يمص إبهامه، وينطق كلمات لا تتناسب مع عمره على الإطلاق). ومن الأطفال خلال هذه المرحلة من يلجأ إلى التبوّل أو إلى البراز، وهذه الأفعال يظن الطفل الغيور أنها يمكن أن تثير اهتمام الأهل به، لأن ذاتها التي تجعل الأهل يهتمون بأخيه ويتركونه. وإذا استمر الطفل ضمن هذه الظروف، فإن مظاهر الغيرة لديه تتجلى بالضيق والتبرم عندما يكبر. وهنا قد يلجأ الطفل إلى الوشاية والإيقاع بالشخص الذي يغار منه، ومن المحتمل أن يوقع الأذى به. فهنا يكمن دور الأهل في عدم جعل الطفل يشعر بالغيرة من أخيه الذي سيولد ويصبح فردًا من العائلة، ولكن كيف يتم ذلك؟

يشير أحد الأخصائيين النفسيين، إلى وجوب إعداد الطفل مسبقًا بقدوم مولود جديد إلى العائلة قبل أن يولد، على أن لا يوعد الطفل بأن الآتي هو ذكر وأنثى، لأن الطفل يأخذ الموضوع بكثير من الجدية. ويفضل معظم علماء النفس، تعريفه بأن أخًا له ينمو داخل أحشاء أمه، وأن يحس حركته داخلها بيديه.. ولا شك أن هذا الأمر لا يمكن شرحه لطفل عمره سنة، إنما يمكن شرح ذلك للطفل الذي أتم العامين من عمره أو أكثر، وبهذه الحالة يمكن ضمان أن ولادته لن تغير حياة الطفل الأكبر، وخاصة إذا كان الطفل الكبير وحيدًا لا إخوة له. كما يجب أن تحدث التغييرات الخاصة بالمولود الجديد قبل موعد ولادته بأشهر، كي لا يشعر الطفل بأن نقلة جديدة ومفاجئة ستأخذ اهتمام وحب والديه بالطفل الأكبر أولاً، ثم الاتجاه للطفل المولود حديثًا، وبذلك لم يعد الطفل الكبير يشعر بالغيرة على الإطلاق.

كيف نعالج الغيرة؟

أفضل الطرق لتخفيف حدة الغيرة هي ممارسة العدالة في الحب والمعاملة، فلا تظهر رعاية لأحد الأبناء على حساب حصة الآخر، وإشعار الطفل بقيمته ومكانته في

hiragate.com

hiragate.com

الأسـرة والمدرسـة وبين الزملاء، وتعويد الطفل على أن يشـاركه غيـره في حب الآخريـن.. يعلم الطفل أن الحياة أخـذ وعطـاء منـذ الصغـر، وأنـه يجـب عليـه أن يحتـرم حقوق الآخرين.

تعويـد الطفـل على المنافسـة الشـريفة بـروح رياضية تجـاه الآخريـن، وبعـث الثقة في نفس الطفـل، وتخفيف حـدة الشـعور بالنقص أو العجز عنـده.. جعل العلاقات القائمة على أسـاس المسـاواة والعدل بين أفراد الأسـرة، دون تمييـز أو تفضيـل فرد على آخر مهما كان جنسـه أو سـنه أو قدراتـه، فلا تحيـز ولا امتيازات، بـل معاملة بين الجميـع علـى قـدم المسـاواة.. تعويد الطفـل على تقبل التفوق وتقبل الهزيمة، بحيث يعمل على تحقيق النجاح ببـذل الجهـد المناسـب، دون غيـرة مـن تفـوق الآخرين عليه، بالصورة التي تدفعه لفقد الثقة بنفسه.

تعويـد الطفـل الأنانـي علـى احتـرام وتقديـر الجماعـة ومشـاطرتها الوجدانيـة، ومشـاركة الأطفـال فـي اللعـب وفيما يملكون من أدوات.. ويجب على الآباء الحزم فيما يتعلـق بمشـاعر الغيرة لدى الطفـل، فلا يجوز إظهار القلق والاهتمـام الزائـد بتلك المشـاعر، كما أنـه لا ينبغي إغفال الطفل الذي لا ينفعل ولا تظهر عليه مشاعر الغيرة مطلقًا.

يجـب علـى الآبـاء أن يقلعـوا عـن كثـرة مـدح بعض الأبنـاء أمـام إخوتهـم، ويجـب اعتبار كل طفل شـخصية مسـتقلة لها مزاياها واسـتعداداتها الخاصة به، كما يجب المسـاواة في التعامل بين الابن والابنة؛ لأن التفرقة تثير الغيرة وتؤدي إلى الشعور بكراهية البنات للجنس الآخر في المسـتقبل. كما لا يجب إغداق امتيازات كثيرة على الطفـل المريـض بجعلـه يتمـارض أكثـر، مما يثيـر الغيرة لدى إخوته.

وعامـة يمكـن للتربيـة أن تـؤدي دورهـا الفعـال فـي التخفيـف مـن معاناة الطفل بالعمل علـى تجنيبه مثيرات الغيـرة قـدر الإمكان، وذلك بقيام المربية من أهل الطفل في الأسـرة، والمعلمين في المـدارس، بدورهم التربوي ومعرفـة أسـباب الغيرة وكيفية معالجتهـا.. فمثلاً، عليهم تقدير الطفل وتشجيعه، لأن قدرات الطفل تتغذى وتنمو على التشـجيع، ولكنها تضمر وتموت بالتقريـع والتثبيط والإهمال. ويحسن الأهل صنعًا إذا ما عوّدوا الطفل منذ الصغر لتقبل الآخرين والتعاون معهم، وعدم المبالغة في تلبيـة جميـع رغباته، حتـى لا يعتقد أنه مركز الكون وأن الجميـع يجـب أن يعمل على إرضائه. وإذا كانت بعض الأسـر تشـكو مـن مـرض أو إعاقـة أحـد أبنائهـا، فيجب أن تكـون العنايـة به وتحقيق رعايته، فـي حده المطلوب والضروري فقط، حتى لا يثير الغيرة عند إخوته فيتمنون المرض مثله، مما ينغص عيش الأسرة ويزيدها إشكالاً.

المنافسـة بيـن التلاميـذ -حتـى تبقـى سـليمة ومنتجة- لهـا شـروط؛ فيجـب علـى المعلـم أن يعـرف كيـف يثيرها ويستغلها، دون أن يقلبها إلى مناسبة للغيرة بمحاباة بعض التلاميـذ على حسـاب الآخر، وبخاصـة إذا كان بغير حق. ولكـن كيـف نعالـج الخطـأ الـذي يرتكبـه الطفـل؟ يجـب العمـل علـى تنبيـه الطفل على خطئه إذا أخطأ، برفق ولين مـع تبيان الحجج التي يقتنـع بها في اجتناب الخطأ.

إن المربيـن من أهل ومعلمين، معنيون بتفهّم الغيرة، أسـبابها ومظاهرهـا، والعمـل على تخفيـف وطأتها على أبنائنـا، مـع ملاحظـة أنـه بقـدر ما يكـون الجو الأسـري متفقًـا مـع أصـول التنشـئة الاجتماعيـة التـي تقـام علـى أسـاليب تربويـة ونفسـية سـليمة، وبقـدر مـا تشـيع فيـه روح المحبـة والتعـاون، يكون الطفل قادرًا على التكيف السـليم مـع نفسـه ومـع مجتمعه.. لذا فعـلاج الغيرة لن يكـون بمحاربتهـا وقمعها، بـل بتنمية العواطـف المقابلة لهـا؛ عواطـف الحـب والغيريـة التـي تحتويهـا فتقـوي شـخصية صاحبها، وتجعله قادرًا على مواجهة المنافسـة في المسقبل. ■

(*) قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

المراجع

(١) الغيرة عند أطفالنا، لـ"سعيد فضلو"، الرياض، ٢٠٠٢م.

(٢) أبحاث مؤتمر التربية في مجتمع المعرفة، لـ"محمد إبراهيم عيد"، المجلس الأعلى للثقافة، مصر ٢٠٠٦م.

(٣) عندما يغار الطفل.. ماذا نفعل؟ لـ"منى السعيد الشريف"، الوعي الإسلامي، العدد:٤٧٣، فبراير ٢٠٠٥م.

(٤) غيرة الأطفال، لـ"ليلى محمد محمد، المعرفة العدد:١٢٧، الرياض، نوفمبر ٢٠٠٥م.

الحبيب علي الجفري*

القيم الإنسانية وضابط الدين

١ الحديث عن الإنسانية قبل التدين، والحاجة إلى منظومة قيم أعلى من الإنسان وقابلة للتطبيق الإنساني، يقودنا إلى مفهوم القدوة في عصر أصبح تأثر الناس بالصور الإدراكية الذهنية لرموز الفن والسياسة والكرة وغيرها، من المسلمات البدهية. هذا وقد أوجد الله ﷻ الأنبياء والرسل ليكونوا قدوة لأممهم، أي بمهمة تجسّد الرسالة في الرسول ليُنظر إليه ويؤخذ به، ثم كان سيدنا محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ورحمة الله للعالمين، النموذج الأعظم في مفهوم الإنسان الكامل.

وإذا كان الإنسان مكونًا من روح وعقل وقلب ونفس وجسد، فإن روحه ﷺ أنقى وأرقى وأعظم الأرواح صلةً بالملك الفتاح، وصاحب الروح التي تجلّى الله ﷻ على صاحبها، فنظر إلى أنواره القدسية وسبحات وجهه الكريم في ليلة المعراج، وهو صاحب الروح الأشد تعلقًا بالله شوقًا ومحبة. ثم أفاض الروح النبوي الشريف على الذات النبوية المطهرة، فكان العقل الأرشد في هذا الوجود، وكانت النفس الزاكية المزكية للنفوس، وكان القلب الذي نزهه الله ﷻ، وكان الجسد مثالاً في الاستقامة، فرأينا فيه ﷺ مفهوم الإنسان الكامل.

لهذا نجد في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾(الكهف:١١٠) ثلاث خطابات: خطاب الإنسانية البشرية، فخطاب الاختصاص والعصمة وسابق الاصطفاء، ثم خطاب التوحيد، الأمر الذي يعيدنا إلى عنوان "الإنسانية قبل التدين" بذات الترتيب. فجانب "مِثْلُكُمْ" في البشرية

هو محل الاقتداء، ومظهر كمال الخَلق والهيئة، وسمو الخُلق والتعامل.

نظرة الرسول إلى الوجود

لقد كانت رحمته ﷺ للعالمين تقتضي أن ينظر للوجود كله بعين الرحمة، يتعامل مع الكل على أساس الرحمة، هذه الرحمة التي تجسدت في أقوال وتصرفات.

كان ﷺ بكمالٍ ينظر فيه إلى السوي وغير السوي في حالته البشرية، ينظر بهذا المنظار إلى العاصي والمذنب، فيؤتى بصحابي تكرر منه شرب الخمر، لدرجة أن يقول رجل: اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به، فيقول النبي ﷺ: "لا تلعنوه، فواللهِ ما علمْتُ، إنه يحب اللهَ ورسولَه" (رواه البخاري). لقد دافع عن السكّير، لأن مقتضى الإنسانية ألّا نجعل خطأه مبررًا لهتك آدميته وإنسانيته، وأن نبحث عن جوانب النور في داخل هذا الإنسان وإن كان في ظاهره ظلمة.

ثم عندما بال أعرابي في المسجد، فثار إليه القوم فانتهروه وأغلظوا له، فقال النبي ﷺ: "دعوه وأهريقوا على بوله دلوًا من ماء، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين" (رواه البخاري)، فعلّمنا تعظيم الساجد قبل المسجد، والإنسان قبل البنيان. وكان ﷺ -كما في الشمائل- لا يأنف ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين والعبد حتى يقضي له حاجته.

بل أورد الواقدي في مغازيه أن رسول الله ﷺ في الطريق إلى مكة، أمر رجلاً من أصحابه أن يقوم بحذاء كلبة ترضع صغارها، وألا يعرض لها أحد من الجيش ولا لأولادها، وفي سنن أبي داود يقول الصحابي الجليل: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حُمَّرةً معها فَرخان، فأخذْنا فَرخها، فجاءت الحُمَّرة فجعلتْ تَفْرُش، فجاء النبي ﷺ فقال: "مَنْ فَجَعَ هذه بولدها رُدُّوا ولدها إليها".

ثوابت القيم الإنسانية

قد يستنتج البعض أنه يمكن للإنسانية أن تحيا بقيم وبمبادئ وأعراف إنسانية دون حاجة إلى دين، بدليل ما نراه من إنسانية وآدمية في الدول التي نعتبرها متقدمة، لكن أغلب تلك الدول قبلت أن تتنازل عن أسمى قيمها الليبرالية، مقابل الحصول على الأمان عندما شعرت أن

الأخلاق والقيم تنبع من إنسانية الإنسان، وتسترشد بنور الوحي السماوي لتكون منطلق تصرفات هذا الإنسان، كي تضبط شهواته ورغباته البهيمية والسَّبوعية.

حراء

هناك ما يتهدد أمانها أو حتى ثقافتها وأسلوب حياتها، فلم يعد كافيًا مجرد الحديث عن ضمير أو عن أعراف، ولا عن قوانين إنسانية ضابطة، لأن مسألة الأعراف تلك -إن لم ترتبط بأصل ثابت خارج عن ذات الأفراد والجماعات والشعوب- تتغير بتغير الأزمنة والثقافات والأمكنة، مما يطرح التساؤل حول ما هو المعيار؟ كيف يمكن أن نحافظ على إنسانيتنا ونعمل على ترقيتها والسمو بها؟

لا شك أن هناك مسلمات وثوابت من أمهات الأخلاق -قبل أن تنتكس الفطرة- كاستحسان الصدق والأمانة والعدل، واستهجان نقيضها من الكذب والخيانة والظلم.. وهي أمور ترتبط بالأحكام الشرعية القطعية التي ليس فيها مجال كبير للاجتهاد، وتعد قليلة قياسًا على الأحكام الاجتهادية الظنية.

هذه الأحكام المتعلقة بثوابت القيم الإنسانية، تتصل بالكليات الخمس التي تمثل مقاصد الشريعة، وتتغيا "حفظ" وحماية الإنسانية في مجالات الدين والنفس والعرض والعقل والمال. إلا أن ما يرتقي بالإنسانية، هو معنى من مجاهدة النفس بناء على تلك القيم الثابتة، ومن الأذواق الروحية القلبية التي بها يكون الإنسان إنسانًا. ذلك المعنى الذي أدخل امرأة الجنة على الرغم من انحرافها الظاهر، لأنها سقت كلبًا يُطيف بِرَكِيَّة يكاد يقتله العطش.. وأدخل أخرى النار في هرة حبستها فلم تطعمها ولم ترسلها فتأكل من خشاش الأرض. فهنا الارتباط المقصود لظاهر الأحكام بالمعاني القلبية في لحظة تيقّظ أو غفلة الرحمة الإنسانية.

هذا المعنى موجود في تفسير بعض العارفين قولَه تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۞ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾(الرحمن:١٩-٢٠) بأنها التقاء بحر الشريعة من افعل ولا تفعل، ببحر الحقيقة من المعاني الروحية والقلبية،

hiragate.com

وأن المقصود بـ"البرزخ" هو إنسان مستخلف في أرض ﴿وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾(الرحمن:١٠).

كيف يمكن أن تُطبق هذه المعاني في عالم الأرض؟

نحن بحاجة إلى نموذج إنساني نرى فيه هذا الكمال، لهذا أرسل الله الرسل الكرام لنرى فيهم أنموذج الكمال الإنساني الذي يجمع بين قيم الأخلاق والاتصال بالروح الأقدس العالي، ورغبات الإنسان وعمارة الكون الذي يعيش فيه.

ثم جاء الحبيب المصطفى ﷺ مَجْمَعًا لمظاهر كمال الإنسانية، جاء يعلمنا أن الإنسانية قبل التدين، عندما أقر صفات راقية في بشر لم يكونوا على دين الإسلام، فأكرم ابنة حاتم الطائي لأن أباها كان يحب مكارم الأخلاق.. يفك العاني، ويُشبع الجائع، ويكسو العاري، ويقري الضيف، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يردّ طالب حاجة قط.. فقال: "لو كان المطعم بن عدي حيًّا، ثم كلمني في هؤلاء (أسارى بدر) لتركتهم له" (رواه البخاري)، إكرامًا له وقبولاً لشفاعته؛ فإنه كان ممن قام في نقض صحيفة المقاطعة بمكة، وأجار الرسول ﷺ عند رجوعه من الطائف، بل وسمح لشاعره حسان بن ثابت برثاء الرجل الذي مات على كفره بقصيدة مطلعها:

أيا عينُ فابكي سيّدَ القوم واسفحي

بدمْعٍ وإنْ أَنْزَفْتِه فاسكبي الدّمَا

إذن ما هو المعيار؟ المعيار الشرعي السماوي الذي يأتي بالثوابت، التي جاء بها الحق ﷻ وعلّمنا إياها، وهي متصلة بهذه الفطرة، ثم البحث من وراء المعاني القلبية التي فيها.

لماذا تحتاج القيم الإنسانية إلى ضابط الدين؟

ألا يكفي لضبط الإنسانية أن نتحدث عن معايير الأخلاق العالمية، أو الأعراف والضمير الإنساني، أو المبادئ العامة التي أقرتها الأمم المتمدينة؟

ألا ترى أن الدول العلمانية، أو تلك التي أبعدت الدين عن مجالها العام، قد كرست منظومة قيم وأخلاقيات حفظت آدمية وحقوق الإنسان على نحو لا نجده في أكثر الدول إيمانًا بالدين وتشددًا في الالتزام بأوامره؟

ألا نشاهد ما يجري في دول ترفع شعار الدين من مذابح جماعية مروعة تصدم الضمير العالمي، وحروب لا تنتهي يدفع ثمنها الضعفاء من الولدان والنساء؟

إن هذا كله قد يكون صحيحًا في ظاهر الأمر. ودعونا نعترف بأن هناك انتهاكات جسيمة، واعتداءات صارخة على كل ما يمثل القيم والأخلاقيات وإنسانية الإنسان وإفساد الأرض.. جرت كلها باسم الدين وتحت رايته.

هل الرؤية المتحررة أو على الأقل غير الملتزمة بالدين، أوصلت البشرية إلى الرقي والإنسانية المطلوبة؟ لا جدال ولا نكير على أن القيم والأخلاقيات المكرسة في حقوق الإنسان وغيرها من الإنسانيات، قد أحدثت نقلة نوعية في عالمنا المعاصر. لكن هل هذا حفظ على الإنسان إنسانيته إلى الدرجة التي دفعته إلى إعمار الأرض؟

بلغة الأرقام: كم عدد الذين قتلوا في معارك وحروب بين دول علمانية أو لغير سبب ديني؟ ولنكتف بمثال الحربين العالميتين الأولى والثانية؛ لقد بلغ قتلى الأولى نحو ٨,٥ مليونًا، بل سجلت بريطانيا خسائر في أول يوليو ١٩١٦ وفي معركة واحدة نحو ٥٧ ألف إنسان، على حين تجاوزت أعداد قتلى الحرب الثانية عتبة ٦٦ مليون قتيل منهم ١٨مليونًا في الاتحاد السوفيتي، وما يزيد عن ٦ ملايين في بولندا، و٤ ملايين في ألمانيا، و٢ مليون في اليابان.

فهل كل الذين قتلوا في الحربين، خسروا حياتهم باسم الدين؟ أم إنها كانت صراعًا بين دول ربيبة حضارات شهدت ثورات تنويرية، وعاشت استقرار الرؤية الليبرالية العلمانية، وتنحية الدين عن صناعة قرار الحرب والسلم؟

لماذا لم تستطع المبادئ العامة التي أقرتها الأمم المتمدينة والأعراف الإنسانية كبح جماح التسلط والانتقام والتجبر وتدمير مقدرات الأرض؟

لقد كانت تلك الحروب وغيرها نتاج فلسفات مادية، أعلنت موت الإله وآمنت بالقوة قيمة عليا في التعامل الإنساني، وطوعت كل القيم لصالحها ابتداء من فلسفة "نيتشه"، ونظرية التطور الداروينية، من الإقرار بحق البقاء للأقوى، وأن صاحب القوة هو صاحب الحق، وتوظيف علوم العمران التجريبية لتأكيد التفوق

hiragate.com

العسكري ولو بالإبادة الكاملة للآخرين.

بل حتى الثورات التي نادت بالعدالة الاجتماعية، كانت نتيجتها ٢٩ مليون قتيل زمن الثورة البلشفية وفترة ستالين، على حين خسرت الصين نحو ٤٠ مليونًا من البشر.. فأين كانت المبادئ الإنسانية والضمير العالمي وقتها؟

لست أدافع هنا عن التطرف الديني بكل أشكاله ونسخه، ولا ألتمس له المبررات بحال، لكني أريد أن أفهم ما الذي يجعل اليمين المتطرف في حالة صعود في الغرب كذلك؟

كيف يتنازل الناس عن ثوابت الأخلاق والقيم الإنسانية بدعوى وجود تطرف ديني؟

إذا كان هناك استغلال للدين باسم الإنسانية في كثير من المجتمعات الليبرالية الآن، فكيف يمكن للإنسانية بقيمها المهتزة تلك، أن تنجح بدون ارتباط بقيم وأصول سماوية تضبط هذا الجانب من حركة الإنسان؟

إذن نحن بحاجة إلى بديل، نحن بحاجة إلى ميزان: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾(الرحمن:٩)، بل نحن بحاجة إلى ميزان فوق الإنسان.

القيم تنبع من إنسانية الإنسان

الأخلاق والقيم تنبع من إنسانية الإنسان. وتسترشد بنور الوحي السماوي لتكون منطلق تصرفات هذا الإنسان، كي تضبط رغباته، سواء البهيمية من الطعام والشراب والجنس، أو الرغبات السَبُوعِيَّة من التسلّط والقوة والتجبّر والتحكم والانتقام والبطش.. فمهمة الأخلاق والقيم، أن تتناول تلك الشهوات بميزان دقيق ضابط يجعلها ترتقي بالإنسان وبالكون، وألا تتحوّل إلى وسيلة للقضاء على إنسانية الإنسان أولاً وبالتالي القضاء على تدينه، ومن ثم إفساد وتخريب الكون الذي يعيش فيه الإنسان.

لكن ما الذي يضبط هذه القيم ويحدد منظومة الأخلاق، التي يتصرف الإنسان من خلالها؟

• إذا كانت القيم هي التي توجه سلوك الأفراد وأحكامهم واتجاهاتهم فيما يتصل بما هو مرغوب فيه أو مرغوب عنه من أشكال السلوك في ضوء ما يضعه المجتمع من قواعد ومعايير.. فما الذي يضمن ارتقاء وعدم تضارب تلك القيم؟

• الأصل هو أن الإنسان يولد على الفطرة، أي تكون لديه هذه القيم الإنسانية (في أصلها الإيماني) في تعامله مع رغباته وشهواته.

إذا أراد الرضيع الطعام صاح وصرخ، فتستجيب له أمه بضمه إلى صدرها، ليرسخ في وعيه منذ الطفولة أن يعلن عن حاجاته بالصراخ ليتفاعل معه العالم المحيط، إلا أن حكمة الله تعالى جعلت تغذية هذا الإنسان الجسدية متصلة بتغذية إنسانيته.

فإذا غابت تلك المعاني واختل الميزان، وانفلت زمام شهوة الطعام والشراب ولو بطلب التنوع والإسراف، اختلت الإنسانية وسارع التدمير لكل مقدرات الطبيعة.

لهذا جاءت حكمة ضبط الرغبات، لأن الرغبات إذا انطلقت بغير ضوابط، تجور على القيم وتضر بإنسانية الإنسان، بغير وجود ميزان تتحوّل الرغبات من وسيلة لارتقاء الإنسان إلى وسيلة لهدم الإنسان.

هناك من يقول إن الضابط هو الدين، وهناك من يقول الإنسانية هي التي تحفظ القيم والأخلاق..

يقول سيدنا محمد ﷺ: "الناس معادنُ كمعادن الفضَّة والذهب، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا" (رواه البخاري)؛ بمعنى أن هناك خيرًا في أناس من غير مسلمين، وأن قيم الخيرية من أصل الفطرة والقيم الإنسانية. ففي الحديث، برهان على التفاوت الفطري في الطباع الخلقية وغيرها، وأن خيار الناس في التكوين الفطري هم أكرمهم خلقًا. وكذلك في حديث حذيفة بن اليمان ﷺ: "إن الأمانة نزلتْ في جَذْر قلوب الرجال" إبانة لحقيقة من حقائق التكوين الأخلاقي الفطري في الناس، وهذه الحقيقة تثبت أن الله ﷻ أنزل خلق الأمانة في أصل القلوب، إذ الجذر أعمق شيء فيها، وهو الذي يغذي عواطفها وانفعالاتها. ■

(*) عالم وداعية يمني، ورئيس مجلس إدارة مؤسسة طابة بـ"أبو ظبي".

hiragate.com

أدب

صفاء الدين محمد*

مفتاح العلوم اللغوية

لا يمكن للبحث اللغوي أن يتخذ اسم علم، إلا إذا كانت نتائجه مرتبطة باستقراء يقوم عليه قانون عام أو نظرية.. ولهذا السبب، لم يتميز فقه اللغة من حيث هو علم يدرِّس الوثائق المكتوبة ولغتها من علم اللغة الذي يتخذ دراسة اللغة في ذاتها موضوعًا له، إلا في مؤلفات القرن العشرين المتأخرة، بعد ظهوره في أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر.

وقد بدأ الدراسة اللغوية المستفيضة عالمٌ جليل في القرن الثاني، ووضع أسسها العلمية في كتاب "العين"؛ فكان الخليل بن أحمد الفراهيدي أول من وضع معجمًا لغويًّا، فكان بحق منشئ هذا العلم الذي يعد الجامع الأوفى لعلوم اللغة، والعلم المستفيض المتنوع الذي ربط بالأصول اللفظية كل البحوث اللغوية.

وقد يتبادر لذهن بعض الباحثين، أن اليونان قد وضعوا هذا العلم في عهد سبق عهد الخليل قبل القرن الثاني الهجري، إلا أن الوثيقة التاريخية التي تثبت لنا الأولوية في هذا العلم، هي ما يفتقد إليها الآخرون ونحظى بها مجسدة بين أيدينا.

ولا يظنن أحد أن كتاب "العين" من نوع المعجمات التي بين أيدينا الآن كالقاموس المحيط، أو المنجد، وما سار من التآليف المعجمية في العصر الحاضر على غرار التصنيف المعجمي في اللغات الأوربية، ذاك الذي تطغى عليه سمة الجمع والترتيب على حسب الكلمات المفردة المشتت للجذر الدلالي.

وإنما كان الترتيب الذي اتبعه، يشيع العلم اللغوي في ثناياه. والمتبصر في الترتيب المعجمي المتبع في كتاب "العين"، يعلم إلى أي حد راعى المؤلف تقلبات الأصل الواحد الصوتية، حيث يرينا من خلال التقليب الصوتي، المعنى المشترك بين الألفاظ التي تنتسب إلى جذور صوتية واحدة، والمعاني التي تنضم إلى المعنى الجامع بين الأصوات متوافقة مع الزيادات الصوتية، وتتغير الصيغ والبنية، وهذا بلا شك، علم لغوي يجمع بحصافة وبفكر ثاقب أريب بين علم البنية، وعلم الدلالة وعلمي النحو والصرف، وعلم الأصوات الذي قد نظن أننا أخذنا مبادئه وعلمه عن اللغات الأجنبية، دون أن نعي جذوره الأصيلة في دراسات اللغويين العرب القدامى.

الثقافة الإسلامية ثقافة جامعة

وحين ننشد التقصي التاريخي لظاهرة العلوم اللغوية لدى المسلمين، نجد أن القرن الأول الهجري كان قرن افتجار فكري رائع، ظهرت فيه الدراسات اللغوية المتعددة للغة العربية الفصحى، حين بوركت بحوثها بعلوم لغوية تلقفها المسلمون مع القرآن الكريم، فكانت لهم حافزًا دينيًّا لغويًّا يدفعهم إلى البحث والاستقصاء، ويستحثهم على الإمعان والتفكر والتدبر.

ولئن قلت إن الثقافة الإسلامية التي أشاعها القرآن الكريم كانت ثقافة جامعة على أعلى مستوى من البحث الدقيق العميق، فلن أكون مبالغًا ولا ممتريًا، لأن من يدرس افتجار الحضارات دراسة وثائقية بعيدة عن

لا بد لكل حضارة من فكر ثاقب تنبثق عنه، ومن بحث علمي تنتهجه على أرقى المستويات، وأكثرها اعتمادًا على الملاحظة الدقيقة والتعليل والاستقراء والاستنباط.. لذلك كان القرآن الكريم، المربي العظيم للفكر العلمي في الأمة الإسلامية.

التعصب والتحيز، ليرى عجبًا، ليس في الفكر الحصيف النزيه العدل الأريب الذي أوجدته آي القرآن وسوره فحسب، إنما في الطريقة العلمية التي استحثت كل من آمن بمبادئ هذا الدين على أن يسير عليها. إنها آيات بينات أوجدت الفكر العلمي الذي تتراءى له الحقيقة، متكشفة للعيان دون شوائب تشوهها ودون ظلال تغيب حقيقة ماهيتها: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾(الإسراء:٣٦).

هذا المنهج العلمي -في تقصي الحقائق باستعمال الحواس الدقيقة، تتلمس حقيقة الأمور، وتردها إلى العقل يناقشها ويسجلها، ويدرسها في وسائل فكرية متعددة، ليستقرئ قاعدة يركن إليها، أو ليكتشف حقيقة يكون السمع والبصر شاهدًا عليها ورقيبًا ومعيارًا لها- لم يكن معروفًا قبل هدي القرآن الكريم، وقبل الرسالة المحمدية، وطغيان الأهواء الفردية في الأحكام الاجتماعية والدينية المعروفة قبل البعثة النبوية، مصداق ذلك.

ولن يكون موضع التدبر والإعجاب، ما ذهبت إليه، لو كان هذا المنهج الراقي في النظر إلى الأمور جميعًا -اجتماعية كانت أم علمية- على سنة هذه حقيقتها، لو كان الأمر مقتصرًا على العلماء فحسب -لأننا الآن نجد عددًا من العلماء يلتزمون هذا المنهج النزيه من الحكم ويعملون به- وإنما المدهش في الأمر، أن هذا الفرض الديني امتزج بالحياة العامة اليومية في التعامل على الصعيدين الرسمي الحكومي والشعبي اليومي، يخضع له العالِم كما يخضع له العامي، فانمحت إثره -أو غابت- المغالطات الفكرية والظنون الذهنية، وخاب إزاءها المرجفون، كما خاب المستغلون والمفسدون.

hiragate.com

التربية الفكرية

ولا بد لكل حضارة من فكر ثاقب تنبثق عنه، ومن بحث علمي تنتهجه على أرقى المستويات، وأكثرها اعتمادًا على الملاحظة الدقيقة والتعليل والاستقراء والاستنباط.. لذلك، كان القرآن الكريم، المربي العظيم للفكر العلمي في الأمة الإسلامية التي أوجدت أعظم الحضارات، وأكثرها ضمانًا لكرامة الإنسان ومكامن طموحه ومرتجى سعادته وهنائه.

فلنتابع هذا التدريب التربوي الذي نحتته الآيات في تفتيق الملاحظة الخيرة، وإذكاء روح النزاهة، وحب المعرفة والشغف بالاستدلال والكشف والاستبيان والتدبر: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾(النمل:٦٩)، ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾(ق:٦).

إنها التربية الفكرية عن طريق الحواس، عن طريق الاعتبار بحالات سابقة وبتجارب مماثلة: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾(ق:٩).

إنها الحياة اليومية في موادها الرئيسية، وفي التجربة المتكررة الممارسة على أوسع نطاق، تستدعي كل فكر إلى العمل الذهني، إلى ربط الأسباب بالنتائج، إلى التوصل بالفكر للمنطلقات الأولى للنعم، ولمعرفة الأيدي المنعمة، وماهية النعم: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(محمد:٢٤).

إنها التربية العميقة المستقصية، التي لا ترضى بالمعرفة المادية السطحية فحسب، وإنما ترتجي إبداع هذه الطاقة الذهنية الهائلة، التي منحتها للإنسان وحده من دون المخلوقات جميعًا، وباهت بها الملائكة.. إنها التربية الربانية التي تريد من الإنسان ألا يدخر وسعًا في إذكاء طاقاته الذهنية ومواهبه العقلية وممارساته الدقيقة في التدبر والتفكر.

لقد تعرّف المسلم على كل ما سبق، ووعى الهدف من وجوده في هذا العالم، وأدرك بالتالي كيف يكون وجوده الأمثل، فجعل الذات المثلى في النبي الهادي أسوته ومنهجه، فسار على هدي الآية: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾(التوبة:١١١).

من هنا كان منطلق الحضارة الإسلامية، مؤمنون رُبّيت نفوسهم على أرقى نهج تربوي، مارست العمل المجدي المثمر لا تنفك عنه. أيقنت بالعمل الذي يرضى عنه الله تعالى، وترقى به المواهب، فباعوا نفوسهم لله، وعملوا على مرضاته في الخير العام، خير البشرية قاطبة.. ولم يكن البحث العلمي إلا نقطة البدء، فكان القرآن الكريم المنطلق الأول للازدهار والخير والنماء.. فاجتمع حوله المؤمنون ينهلون من ينابيعه التي تفجرت بالهدى والمعرفة، بالإبداع المعجز، فكان في كل عقل منه سنا وقبس من نور الله تعالى.. لذلك كان القرن الأول الهجري، فاتحة كل حضارة سليمة من الشوائب والانحراف، وبداية البحث العلمي الدقيق العميق الناجح، وكانت العلوم اللغوية على رأس العلوم الأخرى المتنوعة المجالات والمناهج.

علم الأصوات

ويكاد يكون أول علم تلقنه القراء مع القراءات، علم الأصوات الذي لم يكن يعرفه أحد من قبل. فكان النبي محمد بن عبد الله ﷺ يلقن القارئ -إلى جانب اللفظ- أصوات اللغة المختلفة التي تزيد عن عدد حروف اللغة العربية، ويوضح للقارئ اللام الرقيقة من اللام الثقيلة، والراء الرقيقة، والإدغام بغنة، ودرجات المد وما إليها.. وبقي هذا العلم متواترًا متداولاً حتى قيّض الله له مَن سجله بمؤلف بقي بين أيدينا وعلى أفواهنا برهانًا على أن هذا العلم من وحي الله ﷻ، وليس لمدّع أن ينسبه إلى اللغة السنكريتية كما يعمل الآن بعض الذين ترجموا هذا العلم عن بعض اللغات الأجنبية.

فما قام عليه علم "التجويد الصوتي" من مقاييس صوتية وقواعد وقوانين، لم يكن يعتمد بالدرجة الأولى إلا على الوحي والحس اللغوي النامي، الذي استطاع ضبط هذه المعايير الصوتية. فالدراسات الصوتية التي وصلتنا في التجويد، وكتاب "مفتاح العلوم" "للسكاكي"، لا تختلف عما توصل إليه اللغويون في العصر الحديث، حيث ضبطت هذه المعايير على أحدث الأجهزة الصوتية وأدقها.

ولا يمكن لامرئ تعمق في دراسة علوم العربية، إلا أن يرى المستوى الحضاري الذي توصلت إليه العربية في ارتقاء المقاييس، ودقة القواعد، والتناسب المدهش

hiragate.com

hiragate.com

بين الصوت والدلالة، مما يحدوه حتمًا إلى القول إن العربية قديمة في وجودها قدمًا يسمح لتكوينها على مثل هذا المستوى الرفيع، وإنها توقيفية إلهامية، ليست من صنع البشر كما أشار اللغويون القدامى إلى نشأتها، أمثال أبي علي الفارسي، وأبي الفتح بن جني، إبان دراساتهم اللغوية. فـ"أبو الفتح" في خصائصه يقول: "واعلم فيما بعد، أنني على تقادم الوقت، دائم التنقير والبحث عن هذا الموضع (يعني النشأة)، فأجد الدواعي والخوالج قوية التجاذب لي مختلفة جهات التغول على فكري، وذلك أنني إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة، وجدت فيها من الحكمة والدقة والإرهاف والرقة، ما يملك جانب الفكر حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر فمن ذلك ما نبه عليه أصحابنا رحمهم الله".

لقد ظهرت علوم العربية مع إطلالة نور الهدى، فكان القرآن الكريم معجزة الإسلام الخالدة، حافزًا قدسيًّا شحذ الهمم، وأنار البصائر، فانبثقت عنه علوم العربية، ووضعت لفهمه العلوم في موضعها التقعيدي والقياسي.

القرآن الكريم مفتاح العلوم

فقد وضع أبو الأسود الدؤلي في خلافة علي ﷺ بأمر منه، قواعد النحو؛ صيانة لسلامة النطق وضبطًا للقرآن الكريم، وتعتبر هذه الانطلاقة بدءًا لعلم إعراب القرآن بخاصة وعلم النحو بعامة.

كما أن بلاغة القرآن الكريم المعجزة، هيأت العقول النيرة لكشف هذه البلاغة فاتحدت فيهما حوافز الملاحظة والموازنة بين فروع هذا العلم المتعدد، ونشأ عنها علم الأساليب الذي ألف فيه الجاحظ "البيان والتبيين"، وأتى بعده عبد القاهر الجرجاني يتم ما بدأه الجاحظ بنظرية النظم المعروفة.

ونشأ علم الكلام المقترن بعلم الاستدلال والمنطق والفلسفة، وصولاً إلى فهم آي القرآن الكريم، ومنطلقًا لإيضاح ما استغلق على أفكار الشعوبية والشانئين.

ولقد وصلت العلوم اللغوية في القرن السادس الهجري إلى ثمانية علوم، واتضح في كتاب "مفتاح العلوم" للسكاكي هذا العدد من العلوم اللغوية في عداد علمي النحو والصرف، وعلوم البلاغة الثلاثة، وعلم الاستدلال، وعلم العروض، وعلم القوافي، فضلاً عما ذكرت سابقًا من علوم أخرى، يضاف إليها ما أتى به أحمد بن فارس من علم عرف حديثًا باسم "علم البنية"، وصنفه أحمد بن فارس تحت اسم "المقاييس"، يريد به مقاييس للأصول اللغوية، وما أتى به علماء آخرون من معاجم الدلالة كـ"المخصص" لابن سيده مثلاً.

ومن وراء العلوم اللغوية، علوم جمة كان للقرآن الكريم الفضل الأول في ظهورها، ومن وراء العلوم جميعًا علوم تريد أن ترى النور، إلا أنها لا تنشأ وتزدهر إلا في ظل جمعيات لغوية، ومدارس لعلماء مختصين متفرغين يبحث كل عالم منهم في زاوية منها، وتلتقي آراؤهم في قواعد ثابتة مدروسة.. ولن تتاح لمثل هذه العلوم فرصة الظهور، إلا في دارات للبحث العلمي في دور علماء متفرغين، يعيدون للأذهان مجدًا لنا عريقًا في البحث العلمي، ظهر في زمن المأمون ومن وليه من الخلفاء.. فكانت دار الحكمة دارًا مزدهرة تضم في دارات متعددة أنواع الاختصاص العلمي، وتفرد فيها علماء أجلاء، تفرغوا من كل أعباء الحياة وأعراضها إلى اختصاصهم، يبدعون فيه ويخترعون.. وآخرون ناسخون تقوم دور النشر الخاصة بالإبداع العلمي مقامهم في العصر الحديث.

فالآداب المقارنة -مثلاً- لا يمكن أن تزدهر إلا في ظل جمعية مؤلفين، ومزايا اللغة العربية فيها لا يمكن أن تستبين إلا بعمل جاد جماعي. فالعروض الذي تنفرد فيه لغتنا من دون اللغات وعمود الشعر ونهج القصيد، والالتزامات التي ينبغي أن يتقيد بها الشعراء الحديثون.. كل هذه القواعد البانية للأدب على مناهج مرعية، لن تكون إلا في ظل مدرسة حديثة للشعر والنثر.

فعلم اللغة العام، وعلم اللغة المقارن، لن ينضما إلى صرحنا اللغوي الكبير، إلا بعد جهد جماعي مخلص في شتى المجالات، في البحث والدرس والتأليف والنشر.. وليس هذا على من طبعوا على الحكمة والأصالة ببعيد. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

hiragate.com

العربي السيد عمران*

الحادي

نبَراتُ شدْوِك راحةٌ لفؤادي ... نبَضاتُ خطْوِكَ ساحةٌ لجيادي
وحُداءُ قلبكَ فرْحةٌ لمشاعري ... ورواءُ دربِكَ نفْحةٌ لوِدادي
مِن نُبْلِ سعْيكَ أستَحِثُّ عزيمتي ... لتَفيضَ في جنَباتِ ذاكَ الوادي
مِن حُلو صوتِكَ قد غَزلتُ مَودّتي ... وأذبتُ حُبَّكَ سُكّرًا بمِدادي
فأتتْ حروفي كلُّها برّاقةً ... بيَدِ الجمالِ ونشْوةِ الإسعادِ
أنتَ الذي ملأَ الحياةَ نضارةً ... مُذْ صرْخةِ التّرحالِ في الميلادِ
ومنحتَ شِعْرَكَ للقلوبِ مَسَرّةً ... وبعثتَ بِشْرَكَ في الكُروبِ يُنادي
العزُّ يرسمُ في جبينكَ صورةً ... والعزمُ في صفحاتِ وجْهِكَ بادي
ما زلتَ رغمَ قساوةِ البيداءِ لا ... ترضَى الرّكونَ لوحْشةِ الإجْهادِ
بل تمْتطِي ظَهْرَ الرّمالِ بعِزّةٍ ... ينْسابُ فيها طَيّبُ الإنْشادِ
اهْدِ النفوسَ بحُلوِ شَدْوِكَ داوِها ... فالآهُ تملأُ حُرْقةَ الأكْبادِ
ولتُهدِها أنداءَ شِعْرِكَ وارْوِها ... بالحب، زوّدْها جميلَ الزادِ
واهمِزْ بصوتكَ عزْمَها، أحلامَها ... لتَهُبَّ ثائرةً على الأحْقادِ
ولئِنْ مُنعتَ من الغِناءِ فلا تَخَفْ ... ستعودُ صَدّاحًا لَدَى الميعادِ
ويعودُ نجمُكَ؛ فالقصائدُ كلُّها ... صارتْ ضياءً غاضبًا يا حادي!

(*) شاعر وأديب مصري.

عائشة بنت عبد الله علواني*

منطق الطير

١

العاقل وغير العاقل، أو الناطق وغير الناطق، تقسيم جرت عليه عادة اللغويين والمناطقة، وقبل ذلك عادة الإنسان في تمييز نفسه عن غيره من المخلوقات.. وذهبت بعض الفلسفات الغربية إلى كون الإنسان في بداياته كان غير عاقلٍ، ولكنه تطور ليكتسب عقلاً ومنطقًا. وهذا الافتراض يفتح علينا بابًا من المغالطات الموقعة في الدور، منها: هل يمكن لكائن ما، الانتقال من انعدام القواعد الأولى للمنطق إلى المنطق الصوري، ثم بعد ذلك إلى مراكزه المتقدمة، أيمكن تصوّر "لحظة الانفجار المنطقي" إن جازت تسميتها معرفيًا؟

إضافة إلى توليده إمكانية إزاحة الإنسان عن عرشه، وحلول أيّ من المخلوقات محلّه في مرحلة ما من تطورها، ولا إشكال منطقيًا في هذا، فهو احتمال قائم ما دامت نظرية التطور قائمة بمفهومها الحالي، ولكنه أخلاقيًا يحصر المنظومة المعرفية المتبنية لهذه الفكرة، في زاوية الدفاع فيما يخص علاقة الإنسان بالكون، متخذة لذلك سبلاً، منها وضع معايير لقياس الإدراك والمنطق مفترِضة أن تلك المعايير "الوجه الوحيد والمطلق للمنطق"، والمعيار في هذه الحال هو ذلك الشكل الخارجي للإنسان ومخرجاته المادية، من فكر وكلام.. إلخ.

ولا عاقل ينفي التقدم الكبير الذي آلت إليه علوم الآلة -والمنطق تحديدًا- وأثرها على جميع العلوم، لكن ذاك لا ينفي عنها الزلل الإنساني -فبِوَعي منها أو عن غير وعي- سواء أكان المقصد بريئًا أم غير بريء وراء هذا التصنيف "العاقل وغير العاقل"، علينا إخضاع هذه المسلمة للنقاش والنقض، من خلال مصادر منظومتنا المعرفية المستندة إلى الوحي، أو المصادر الأخرى المتحيزة عنه تحيّزًا جزئيًّا أو كليًّا عن الوحي، للوصول إلى المقدمة الأسلم والأوفق، كيما تبنى عليها النتائج الأقرب إلى الصواب.

هل الإدراك حكر على الإنسان؟

إن الملاحظة العلمية التجريبية إلى حد الساعة، لم تحِدْ عن حكمها الذي استصدرته على الموجودات بأن المنطق والإدراك في أعلى مستوياته حكرٌ على الإنسان، فالحيوان مهما بلغ من الذكاء، لا يتقدم إلى مستوياته العليا، فليست استعداداته العصبية البيولوجية ولا الفكرية، قابلة لاحتواء مفاهيم مجردة، أمّا غيرهما من الموجودات، فالقضية غير قابلة للطرح والنقاش أصلاً.

ومثال على ذلك، إن بعض المصنفات الإسلامية في المنطق، قسمت الإدراك إلى أربعة مستويات: أوّلها الإدراك الحسي، وثانيها الإدراك الخيالي، وثالثها الإدراك الوهمي، ورابعها الإدراك العقلي والفكري. والحيوان -كما الإنسان- يشترك في المراتب الثلاث الأولى، طبعًا مع انحسارٍ في أنواع الحيوانات مع التقدم في كل مرتبة، ثم يتفرّد الإنسان بالمرتبة الرابعة والأخيرة.

وهذا التصنيف لا يتباين كثيرًا مع تصنيف المعاصرين لتلك المراتب، لاعتبارها مدى تقدم التجريد وتعقيد العمليات العقلية أساسًا لتفاوت المراتب بين الأقسام، غير أن المؤاخذ على التقسيم المتقدم، اعتباره لأنواع الإدراك مراتب متفاوتة يعلو بعضها على بعض. وبذلك كان القسم الأقل حظًّا من انتماء الحيوانات، هو الأعلى مرتبة باعتبار أن التفوق ليس من سمات الحيوان، أو من مدخل "نصّي حرفي" أن الإنسان مفضّل مكرّم.. بينما المدقق في هذا التصنيف، يجده أنواعًا مختلفة من العمليات العقلية والحسية، وفي ذات كل نوع منها مراتب إدراكية متفاوتة؛ فبعض الحيوانات -مثلاً- متطورة في النوع الأول -وهو الإدراك الحسي- تطورًا مذهلاً، بحيث إذا قارنّا الإنسان بها نجده أفقر الحيوانات في ذلك النوع. وكذا بالنسبة للأنواع الأخرى، فقد نقلب الهرمية بهذا الشكل فيصبح الإنسان في أدنى درجات التصنيف، والمأخذ الأهم هو اتخاذه للمنهج الحسي التجريبي كسبيل للتقييم والتقسيم، وهذا ما أدرج تصنيف انتماءات الحيوانية إلى هذه التقسيمات، في حين المعتمد في دراسة المنطق هو المنهج الاستدلالي!

ونجد عند المناطقة المعاصرين تقسيمًا مقاربًا لهذا نوعًا ما، لكن باعتبار أن التقدم في مستويات الإدراك والعمليات العقلية وَفْق الدلالة اللغوية، وتوظيفها: المستوى الأول وهو الحسي، فيليه الثاني وهو التخيلي، ثمّ مستوى التجريد الأول، فرابعًا وأخيرًا مستوى التجريد الأعلى. ومعيار التقدم في مستوى الإدراك هي الدلالة اللغوية للكلمة ومدى توغّل المفاهيم التي تحتويها نحو التجريد.

والإشكال المتولد عن هذا التقسيم، أنه منحصر ابتداءً في نوع واحدٍ من الحيوانات وهو الإنسان، باعتبار أن اللغة خاصيته اللازمة، إلا إن اعتُبرت بعض الإيماءات والرموز الحيوانية لغة مطردة ومنضبطة، يمكن إخضاعها لهذا المعيار وذلك باتباع المنهج التجريبي.

كلا النموذجين والاعتبارين نجد فيهما قصورًا معيّنًا، طبعًا مع كون الأخير -وهو منهج المعاصرين- أكثر انضباطًا من الأول، لاتباعه المنهج الأصح والتزامه إياه. أمّا الأول -وهو منهج المتقدّمين- فنراه يتخبط تارة بين المنهج التجريبي فالاستدلالي، لذلك تعددت الأخطاء جرّاء هذا الاضطراب، مع ذلك فإن التزام المنهج الاستدلالي وحده، قد لا يوصلنا إلى الإجابة على الإشكالية الأولى، وهي: هل الإنسان هو العاقل الوحيد والناطق الأوحد في هذا الكون؟

الأزمة المعرفية إلى أين؟

إن المناهج البحثية الإنسانية مهما بلغت من الدقة والصواب، إلا أنها تقف عاجزة في حدود معرفية معيّنة، لا يمكنها تجاوز تلك الحدود ولا حتى بانفجار معرفي ثانٍ على افتراض وقوع الأول. إضافة إلى ذلك، فإنها تضع البشرية في أزمات معرفية أقل ما نقول عنها بأنها خيالية، عندما تحاول جاهدة الإجابة عن تلك الأسئلة

hiragate.com

الميتافيزيقية بعيدًا عن الوحي، منحازة بذلك إلى كل ما هو "وضعيّ، مادّي" . وقد أثبت الإنسان إخفاقه في كلّ مرة يحاول فيها حصر معارفه بسياج منهجه التجريبي.

وهنا مَكمَن افتقار الإنسان إلى الوحي مرشدًا ومعينًا، ومختزلاً للمسافات، ومقلّصًا لدائرة الأخطاء والاحتمالات التي لا تكاد تتناهى. ولا يتصوّر أن هذا الخلل منحصر بالمنظومة المعرفية الغربية، فالحال لا يقل سوءًا في المنظومة المعرفية الإسلامية "مجازًا إلى أن تكتمل لتسمى منظومة"، بل يزداد سوءًا على سوء، إذ يتخبطه شيطان العجز بين النصوص المجتزأة من الوحي تارة، وبين انبهارها -الكامن أحيانًا والمفضوح أحيانًا أخرى- بالمناهج المتحيزة عن الوحي، فتتشكل بذا فجوة أعمق وأخطر بين العلم والعمل، بل بين معتقد الباحث وبين مخرجاته البحثية. فكيف لعلامة مسلم الغفلة عمّا جاء في كتاب الله ﷻ من وعي وإدراك الحيوانات بل والمخلوقات ثم يجعل المنطق العقلي خالصًا مخلصًا للإنسان؟ أمَا يحضره قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(الإسراء:٤٤)، أم أنه تأوّل التسبيح؟ فالآية دلت دلالة مباشرة أنّ عدم فقه اللغة، لا يعني عدم وجودها؛ "فعدم العلم بوجود الشيء، ليس علمًا بعدم وجوده". وهذا تأكيد لإدراك المسبِّح لكُنْهِ تسبيحه رغم جهل غيره لتلك اللغة. وأوضح إدراك في هذه الآية، هو وعي المسبِّح بخالق مفارق للموجودات، هو موجد للكون فاستحق على ذلك الحمد والتسبيح.

علاقة المنطق والإدراك باللغة

ويفتح الله تعالى لنا أفقًا أوسع في إشكالية علاقة الفكر باللغة، وعلاقة المنطق باللغة، إذ المخرجات الإنسانية -من لغة وغيرها- ليست الماصدقات اللازمة الوحيدة والمطلقة للمنطق والإدراك، والمناطقة خير من يدرك ذاك.

والقرآن الكريم لم يترك الأمر على إجماله معلقًا ضبابيًا، بل أرشد إلى نماذج لحيوانات مدركة وذات منطق وتفكير، كيما تكون مؤشرًا لما يجول في العالمين خارج عالم الإنس؛ فهذا نموذج الهدهد: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ

إن الافتراضات العلمية التي تولدها نصوص القرآن الكريم، تفتح آفاقًا علمية ومعرفية عظيمة، الإنسان بمناهجه البحثية عاجز عن الوصول إلى سماها، وإنّ أقلّ نتيجة تجنيها الإنسانية من التحيّز عن نصوص الوحي في البحث العلمي، هو الحد من المعرفة الإنسانية.

يَقِينٍ ۞ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾(النمل:٢٢-٢٣)؛ والملاحظ من هذه "الترجمة القرآنية" لكلامه، حضور المفاهيم المجردة -كلية وجزئية- "سبأ، نبأ، يقين، امرأة، الملك...".

ويرتفع المستوى التجريدي في قوله: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ ۞ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۞ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾(النمل:٢٤-٢٦)؛ فالمفاهيم: "القومية، السجود، إخراج الخبء، السماوات والأرض"، تصورات لمعان متعالية متجاوزة، كما يزداد التعقيد في الألفاظ: "الشيطان، تزيين الأعمال، الصد عن سبيل الله، الهدى، الإخفاء والإعلان، كلمة التوحيد، الله رب العرش العظيم"، فهذا مستوى التجريد الأعلى، أو "تكوين المفاهيم والتصورات الصّورية، فهي تجريد من المجردات"، وقد اختلفت صيغة وصف العرش من الملكة إلى عرش الله تعالى في كلام الهدهد من التنكير إلى المُعرّف، إذ هو عرش الرحمان الموصوف بمطلق هذه الصفة، وكلام الهدهد هذا نسف أيّ تصورٍ عن غياب المفاهيم الصورية المجردة من إدراك الحيوانات، لتصبح محض أوهام أمام نصاعة نصوص الوحي الكريم.

ومع أن النصّ صريح ولا يحتمل التأويل، إلا أن التسرع في الحكم بأن مدارك الحيوانات كلها في ذلك المستوى، ليس من المنهج العلمي. فلعل مرجع الإدراك عند تلك المخلوقات (النملة والهدهد)، هو تعامل سليمان عليه السلام معهم بمستوىً عالٍ من المنطق، وهل من المحتمل أنّ الهدهد كان يردد تلك الكلمات

hiragate.com

ببغائيًّا دون إدراك مفاهيمها الكامنة؟

إن تخلفه عن الصف من أجل التقصّي عن الحقيقة، أظهر قدرةً عالية في تقدير الأمور من حيث الأهمية أو "فقه الأولويات"، وكذا قدرةً على الاختيار واتخاذ القرار بعد الإدراك، مع بقاء احتمال خصوصية الأمر بهذا الهدهد عينه، أو على أوسع تقدير خاص بجند سيدنا سليمان، إلا أنه تعالى أسبق ذكر دعائه عليه السلام: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾(النمل:١٦)، فمنطق الطير اسم عِلمٍ تعلمه سيدنا سليمان، ولو ابتدأ ذا العلمُ عنده لاختلفت الصيغة إلى التنكير كأن يقول "علمنا منطقًا للطير".. ويزداد التأكيد على قوة الهدهد الإدراكية، النظر إلى تهديده عليه السلام للهدهد باللفظ المتوعّد، وافتراضه عليه السلام استقدام الهدهد عذرًا عن الغياب، وليس أي عذر، وإنما العذر بمستوى "سلطان مبين"، والسلطان في منطوق القرآن إمّا علم: ﴿فَانْفُذُوا لاَ تَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾(الرحمن:٣٣)، أو حجة ساطعة: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾(غافر:٣٥)، بمعنى آخر، طلب نبي الله الاستدلال والجدل من هذا الكائن (غير الناطق في عرفنا البشري)، محمّلا إياه عاقبة الخطأ والإهمال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾(النمل:٢١). فلو كان الهدهد في طور التعليم والإرشاد، لَبدت الرحمة في كلام نبي الله (وهم الرحمة المهداة عليهم السلام)، كما أن رده عليه السلام على حجة غياب الهدهد التي استقدمها وقوله: ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾(النمل:٢٧)، به افتراضٌ للكذب والصدق، ووضع للحجة موضع النقد المنطقي، ولعله افتراض للهدى والضلال أيضًا وهذا مستوى التدين.

أمّا بعث الهدهد إلى سبأ بأربع أوامر، كلٌّ منها أعلى مستوىً من سابقه، ففيه ثقة بل يقين بحسن إدراك الهدهد، وإلا لكان عبثًا من النبي -وحاشاه وإخوانه عليهم السلام- أن يكونوا من الجاهلين: ﴿اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾(النمل:٢٨)، متوقعًا عليه السلام من ذلك الهدهد، الوفاء بجميع تلك المهام، ليبني على نتائجها سياسة الدولة الخارجية، وليست أي دولة، إنها دولة قائمة على إرساء العدل في الأرض وخلافة الله فيها.

هل الإنسان حيوان ناطق؟

فهل نستطيع التغريد ببغائيًّا في تعريفنا الحدّي للإنسان أنه "الحيوان الناطق"؟ كما يجعلنا أمام إشكال فلسفي كلامي آخر، وهو: إذا كان الحيوان يشترك معه في كل مستويات الإدراك -ولا زال الحكم على ذلك قيد الدراسة، وغير مفصول فيه- ولديه القدرة على الاختيار أيضًا، ما مناط التكليف عند الإنسان؟

إن الافتراضات العلمية التي تولدها نصوص القرآن الكريم، تفتح آفاقًا علمية ومعرفية عظيمة، الإنسان بمناهجه البحثية جميعًا، عاجز عن الوصول إلى سمائها، وإنّ أقلّ نتيجة تجنيها الإنسانية من التحيّز عن نصوص الوحي في البحث العلمي، هو الحد من المعرفة الإنسانية، أو عسر الوصول إليها. والعكس لا يصح أيضًا؛ فلا يخدم الوحي بل لا ينفع الإنسانية الانغلاق على النصوص والتحصن بموروث ينفي أي منهج جديد للنظر في الآي، بل يقدح في النص نفسه أن كتاب الله لا أفق له في النهاية إلا معرفة الإنسان في عصر من العصور، على فضل ذلك العصر الذي لا ينكره مؤمن.

قد تظهر الأزمة للناظر بسيطة ولا تحتاج إلى كل هذه المقدمة لكن؛ ما أن تقرأ أو تشاهد لتلك الدراسات المعمقة حول الطبيعة من حولنا، والتي تأخذ من الدارس أشهرًا وأعوامًا بين المختبر والميدان، ممحصًا لعديدٍ من الفروض بدقة عالية وكدّ تخشع له قلوب العاقلين، فيخر المرء راكعًا عندما يشهد اتحاد النتيجة مع نصوص الوحي، ولا يقل الموقف صعقًا ورجفة عندما تتناقض وإياها، ليس لأن الشك سيتسرب إلى قلب المؤمن تجاه نصوص الوحي، بل لأن ذاك سيعمق الهوّة بين عالِم المخبر المادي، وعالِم المخبر النوراني، والخاسر والرابح في كلتا الحالتين -التوافق والتناقض- هو الإنسان لا غير. ■

(*) كاتبة وباحثة جزائرية.

hiragate.com

hiragate.com

د. بولات خاص*

الأمل، إيمان بالله وثقة به أولاً، ومجاهدة للنفس بإرادتنا الجزئية ثانيًا.. فإذا وفّينا إرادتنا حقها فلِمَ اليأس إذن؟

الموازين

الرضاعة الطبيعية وتأثيرها على نفسية الطفل

تذكر كتب الطب الكلاسيكية أن مدة الرضاعة الطبيعية لدى الطفل ستة أشهر، ثم زوِّدت هذه المدة فيما بعد إلى تسعة أشهر. وقد ورد في الكتب الطبية الحديثة أن الطفل يحتاج إلى عامين من الرضاعة الطبيعية، وأكد "دليل واشنطن للعلاج الطبي" (Manual of Pediatric Therapeutics) في أعداده الأخيرة، أن مدة الرضاعة الطبيعية للطفل يجب أن تكون عامين كاملين.

وإذا أردنا أن نلقي نظرة سريعة على حليب الأم وطبيعته، نرى أن نسبة الحمض الأميني "تورين" فيه -وهي مادة ضرورية لنمو مخ الطفل- أزيد من حليب البقر بأربعين مرة، وذلك يعني أن إرضاع الطفل مدة طويلة يلعب دورًا مهمًّا في نمو ذكائه.

هذا ويعدُّ حليب الأم أقوى مضاد للجراثيم، ويلعب دورًا مهمًّا في صحة الطفل، شأنه في ذلك شأن تزويد الطفل بالمضادات الحيوية القوية عن طريق الوريد حال إصابته بتعفن الدم وتسممه.

وهناك اعتقاد خاطئ بأن الأطفال المصابين بالإسهال ينبغي إبعادهم عن الرضاعة، ولكن الأصح إرضاعهم وإعطاؤهم دواء الإسهال.. فقد ثبت أن نسبة وفاة الأطفال، وزيادة نسبة الصوديوم في الدم، تكون قليلة للغاية في حالة الرضاعة الطبيعية.. ويؤكد ذلك، الأبحاث العلمية التي قام بها علماء متخصصون في إنجلترا وويلز.

حماية الطفل من أمراض كثيرة

يحتوي لبن الأم على مكوّن من الغلوبولين المناعي (IgA) و"اللاكتوفيرين" الذي يسمى أحيانًا بـ"الاكتوترا تسفيرين"؛ وهذا المركب يمنع من نمو الميكروبات، بالإضافة إلى احتواء لبن الأم على "أنزيم ليزوزيم" الذي يقوم بالقضاء التام على البكتيريا. وبالتالي فلبن الأم، يعد أقوى دفاع لجسم الطفل حديث الولادة، أمام المرض الأكثر فتكًا بالأطفال، وهو "الاتهاب المعوي القولوني الناخر" (Necrotizing enterocolitis).

نعم، إن لبن الأم يقوم بدور مهم في وقاية الطفل من الفيروسات المتنوعة؛ فهو يقضي على أنواع شتى من الفيروسات، ويقوّي مناعة الطفل، ويقلل نسبة إصابته بالأمراض.. وقد أكد العلماء أن لبن الأم يحتوي على كافة الفيتامينات والمعادن والأملاح التي يحتاجها الرضيع، كما يحميه من الإصابة بالأمراض، ويجعله أقل عرضة لالتهابات الجهاز التنفسي، والهضمي، والتهابات الأذن، والالتهاب السحائي.

والفضل في الدور الوقائي والمناعي الذى يقوم به لبن الأم في حماية الطفل في بداية حياته، يرجع إلى احتوائه على نوع من البروتينات وأجسام مناعية تسمى "IGA"، حيث يلعب هذا البروتين دورًا مهمًّا في حماية الطفل من الإصابة بالأمراض.

وكذلك أثبتت الدراسات والأبحاث العلمية، أن الرضاعة الطبيعية تقلل أيضًا نسبة وفاة الأطفال؛ إذ الأطفال الذين يرضعون رضاعة طبيعية، يكونون أقل عرضة بنسبة ٢٠٪ من غيرهم للوفاة حتى بلوغهم.

ثم إن الأطفال الذين يتغذون على حليب الأم، يكتسبون مناعة ضد صلابة الشرايين، وضد السمنة أيضًا؛ حيث أكدت الأبحاث الطبية التي أجراها "ليوبد" و"فولكنر"، أن نسبة السمنة عند الأطفال الذين يعتمدون على الرضاعة الطبيعية وقتًا طويلاً، أقل من الأطفال الذين يتغذون على غير حليب الأم، وذلك لوجود بروتينات في حليب الأم تساعد الجسم في تعامله مع المواد السكرية والدسمة في الدم، وأن انخفاض هذه البروتينات في الجسم يزيد من احتمالية تكوّن الخلايا الدسمة.

ويشاهَد مرض قصور الغدة الدرقية بصورة أقل عند الأطفال الذين يرضعون رضاعة طبيعية زمنًا طويلاً، كما تنعدم حساسية حليب البقر وحساسية الحليب لدى رضيعي حليب الأم.

ويشير "ستيفنسون" إلى أن عدوى الجهاز التنفسي تنخفض عند الأطفال الذين يأخذون حليب الثدي خلال الستة أشهر الثانية من الرضاعة. أما مرض النكاف، والانفلونزا، وجدري الماء، والتهاب الدماغ، فتمنعه المواد الموجودة في حليب الأم، كما تزيد الأجسام المضادة الموجودة في الحليب، من مقاومة الجهاز الهضمي للطفل، ولا سيما ضد بيكتيريا (E. coli) والتي تعرف طبيًّا بـ"بيكتيريا الإشريكية القولونية".

الرضاعة الطبيعية تفيد الأمّ

إن للرضاعة الطبيعية فوائد شتى للأم أيضًا؛ فطبقًا للأبحاث الطبية، فإن الرضاعة الطبيعية تقلل مخاطر إصابة المرأة بسرطان الثدي. كما لا يحتاج الطفل إلى أي تغذية إضافية غير لبن الأم، ونادرًا ما تحدث حالات فقر الدم عند الأطفال خلال التسعة الأشهر الأولى إذا ما استمروا يرضعون حليب أمهم.

لقد أجريت أبحاث ودراسات حول مرض "الإنيميا"، وتبين أن ٥٠٪ من الأطفال الذين يتناولون لبن البقر بصورة يومية، يتعرضون لفقدان ٧ سم٣ من الدم، لأن لبن البقر يحتوي على نسبة قليلة من الحديد، مما يؤدي إلى تطور مرض الأنيميا. ويعتقد أن العامل المسبب

hiragate.com

لفقدان الدم هو جزيء الاكتالبومين الكبير الذي يؤثر على الأمعاء، والموجود في لبن البقر. المراد قوله هنا، إن قطْع الرضاعة الطبيعية مبكرًا عن الطفل، وإبدالها بأنواع الألبان الأخرى، يكون فيه أضرار للطفل الرضيع.

تأثيرات نفسية

إن قطع الرضاعة المبكر عن الطفل، يؤدي إلى أضرار نفسية للطفل، يقول الدكتور "أدسال": "إن قطع الرضاعة الطبيعية عن الطفل بصورة مبكرة، تولد في الطفل حب التوبيخ والعنف، كما أن قطع الرضاعة الطبيعية بصورة مفاجئة، قد يؤدي إلى ظهور أمراض نفسية لدى الطفل". أما الدكتور "كوكنيل" فيقول: "إن قطع الرضاعة الطبيعية عن الطفل بصورة مفاجئة، تعرّض الطفل الرضيع لأعراض مماثلة لما يعانيه الرجل النهِم عندما يمنع من الطعام، أو ما يعانيه المدخن المدمن من ضيق واضطراب في النفس".

إن حرمان الطفل من الرضاعة الطبيعية قبل الوقت اللازم، يؤدي إلى أضرار نفسية كبيرة، ووفقًا للدراسات، تبين أن حرمان الأطفال من الرضاعة الطبيعية والاستعاضة عنها بالمغذيات الأخرى، يؤدي إلى تأثيرات نفسية سلبية على شخصية الطفل.

وبناء على الدراسات الاجتماعية التي أجريت حول الموضوع، تبين أن الأطفال الذين حرموا من الحنان والعطف والتقصير في التغذية، ظهرت عليهم أعراض العنف والهجوم على الآخرين، وأصبحوا غير جديرين بالثقة، بينما الذين استمرت رضاعتهم الطبيعية لعامين، أصبحوا أشخاصًا متزنين يتمتعون بالشفقة والعطف على الآخرين.

ولقد أشار الدكتور "هارلوف"، إلى أن الأم فضلاً عن تقديمها دعمًا ماديًا لطفلها خلال الرضاعة، تقدّم دعمًا نفسيًا أيضًا، وتوكيدًا على ذلك، جاء بقفص فيه قرد صغير، ثم وضع في القفص ماكيت قرد مصنوع من الأسلاك المعدنية وفي داخله زجاجة رضاعة، ثم جاء بماكيت قرد آخر مكسوّ بفرو قرد ولكن لم يضع داخله زجاجة رضاعة.. فكانت النتيجة أن القرد الصغير كان يذهب للرضاعة إلى القرد السلكي دائمًا، وإلى قرد

إن الأطفال الذين يتمتعون برضاعة كاملة، يملكون الثقة بأنفسهم، وتكون حالتهم المزاجية والنفسية أكثر استقرارًا من غيرهم. أما إذا حرم الطفل من الرضاعة الطبيعية مبكرًا، يؤدي ذلك إلى إصابته بالأمراض النفسية الخطيرة التي يصعب معالجتها عند الكبر.

الفرو عندما يريد النوم.. وإذا أُخيف الصغير فسرعان ما كان يحتمي بالقرد المكسو بالفرو ويلجأ إلى حضنه، مما يدل على ميول الصغير بطبيعته إلى الجلد المكسو بالشعر، ليهدأ ويشعر بأمان.. مثل طفل بني الإنسان تمامًا، حيث يتغذى الرضيع في حضن أمه من جانب، ويشعر بالأمان من جانب آخر. يقول الدكتور "جابر أوغلو": "إن الأمّ، تزيل جوع طفلها وتدفع الرطوبة والبرودة عنه، بالإضافة إلى أن الطفل يشعر في كل مرة تحتضنه أمه، برائحتها ولمستها ويسمع صوتها، حيث ينظر إلى وجه أمه، وبعد شهرين يبدأ يبتسم لها ويبكي. ولذلك تتميز الرضاعة الطبيعية عن الرضاعة من الزجاجة، وإذا حرم الطفل من الرضاعة الطبيعية مبكرًا يقوم بمص إصبعه ليشبع رغبته في ذلك".

نعم، أثناء الرضاعة الطبيعية يكون الطفل في حضن أمه، يشعر بالطمأنينة والراحة والأمان، إلى جانب التغذية المثلى لنموه. ولقد وجد الدكتور "بوولبي" أن حصول الطفل على الأمان في ذلك السن المبكر ضروري ولازم لصحته النفسية.. ولقد أعلن الدكتور "مسرمان" أن حضن الأم للطفل أمر في غاية الأهمية.

إن الأطفال الذين يتمتعون برضاعة كاملة، يملكون الثقة بأنفسهم، وتكون حالتهم المزاجية والنفسية أكثر استقرارًا من غيرهم.. أما إذا حرم الطفل من الرضاعة الطبيعية مبكرًا، يؤدي ذلك إلى إصابته بالأمراض النفسية الخطيرة والتي يصعب معالجتها عند الكبر. ■

(*) أكاديمي وطبيب تركي. الترجمة عن التركية: صالح القاضي.

صلاح عبد الستار الشهاوي*

داود الأنطاكي
قامة في علم الصيدلة

يقول "جوستاف لوبون" في كتابه "حضارة العرب": "إن أهم تقدُّم للمسلمين في عالم الطب، هو ما كان في أنواع الأدوية والصيدلة، وظهور عدة طرق يعود الطب الحديث إلى بعضها بعد إهمالها قرونًا كثيرة".

وإذا بحثنا في معرفة العقاقير الطبية -النباتات بأجناسها، والأعشاب بأنواعها، وطريقة ما يختار منها وما يذاب وما يطبخ، ومدى قوة الدواء وتأثيره- نجد أن الصيدلي ما هو إلا عالم يبحث بين النباتات المختلفة في الشكل ومعرفة منابتها وأصل تربيتها.

لذا كان التداوي بالأدوية عند المسلمين، بزهور النباتات وبذورها وجذورها؛ فاستعملوا البصل الكمون لمعالجة أمراض الصدر، والثوم لمعالجة ديدان وأمراض المعدة، التين لمعالجة الإمساك، الحلبة لأمراض الربو والسعال، والحبة السوداء لأمراض الجهاز الهضمي، والكمأة لعلاج أمراض العين، السواك لعلاج الأسنان.

وقد وردت أسماء بعض النباتات الطبية في الأحاديث النبوية في مجال العلاج وفي مجال الأدوية والأشربة والخضاب، واكتشف العلماء المسلمون أدوية جديدة أضافوها إلى علم الأدوية من بينها:

- المسهلات: كالراوند، والسنامكي، والسنط.
- والمنشطات: كالجوز المقيئ، والأكونيت، وخانق الذئب.
- ومسكِّن للألم: القنب، والحشيش، والأرجوت، وصدأ القمح.
- ومنوم ولتسكين الألم وإيقاف السعال: الخشخاش، والأفيون.
- ولمنع الإسهال: الكافور، والصندل.

كما استعملوا القرنفل، والمر، وجوز الطيب، والتمر هندي، والقرفة، والينسون، والزنجبيل، والتوابل في التداوي.

وكان المسلمون يمارسون تخدير المريض أثناء العمليات الجراحية، فقد أكد "ريو" أن الأطباء المغاربة كانوا يستعملون "السكران" وهو عشب مخدر، وجوز الطيب في عملية الختان، أو تركيبة دواء من السكران والكبريت، ويكون البخار المتصاعد من طبخهما بمثابة مخدر يستمر تأثيره ٢٤ ساعة.. كثيرًا ما كانوا يستعملون أعضاء بعض الحيوانات لمعالجة الأمراض، كداء الكلب (السعار) بتناول ٩ مثقال (جرام) من كلية الكلب العقور بمجرد قتله، أو مرارته التي تحتوي على مادة مضادة لجراثيم داء الكلب.

ولقد كان الأصل في التداوي عند الأطباء المسلمين، اعتمادهم على الأدوية المفردة وهي كثيرة جدًّا.

وبمجيء أصحاب القياس، نشأ اتجاه جديد في الطب الإسلامي، يقول أصحابه إنه لا يمكن للأدوية المفردة شفاء جميع الأمراض. فنشأ ما يسمى بعلم الأدوية المركبة. والواقع أن معرفة الأدوية المركبة وصنعها، يتطلب علمًا جيدًا وخبرة وبراعة.

وقد استطاع المسلمون تأليف أدوية مركبة مختلفة لأمراض كثيرة.. ومن هذه الأدوية، الترياقات وأشهرها: الترياق الأكبر لمكافحة لسعة الأفاعي السامة، والأرياج، والجوارشنأي: الهواضم، والسفوفات، والأشربة، والمربات والأقراص، والأدهان، والمراهم، والشيافات، والحمولات.. وإلى هذا يعزى ظهور صناعة الصيدلة الإسلامية.

وكان من أسباب تقدم الصيدلة العربية الإسلامية، تقدم المسلمين في الكيمياء، وابتكار مختلف الطرائق: كالتقطير، والترشيح، والتكليس، والتحويل، والتبخير، والتصعيد، والتدويب، والتبلور.. والمسلمون هم الذين اكتشفوا الكحول، والبورق، وحامض الطرطير، وغيرها من المواد.

ولقد شعر المسلمون منذ القرن الثاني للهجرة بأهمية علم الصيدلة في التجارب الطبية، كما اقتنعوا بأن معرفة الكيمياء أساسية في البحوث الصيدلية. وقد أكد "برتيلو" في كتابه "الكيمياء قي القرون الوسطى"، أن كُتب جابر بن حيان في الكيمياء، هي غاية ما وصل إليه العقل الإنساني من الابتكار. وكان أول من أقام المستشفيات

كان الأنطاكي ضريرًا، ورغم ذلك اعتُبِر خاتمة عقد الأطباء المسلمين المحققين العظام الذين كانوا أساتذة في علومهم وسلوكهم المهني، والذين تركوا إرثًا علميًّا متنوعًا شاملاً.

ونظم صناعة الأدوية والأعشاب، الأمويون، ففي هذا العصر فرض الخليفة المعتصم تأدية امتحان في الطب والصيدلة، وأجرى أول امتحان للصيادلة عام ٢٢١هـ. وكان المحتسب يُحلِّف الأطباء والصيادلة السر المهني؛ وهو أن لا يعطوا أحدًا دواء مرًّا، ولا يركبوا له سمًّا، ولا يصنعوا التمائم عند أحد من العامة، ولا يفشوا الأسرار.

هكذا صنعت مجموعة من الرجال المسلمين علمًا صار من أهم العلوم الحديثة التي بنت عليها أوربا والدول الغربية كافة دعائم تطورها وتقدمها العلمي والحضاري.

ولقد تبوأ داود الأنطاكي المكانة المرموقة في قائمة هؤلاء الرجال الأفذاذ، حيث كان قامة مسلمة في مجال علم النبات والصيدلة.

من هو داود الأنطاكي؟

داود بن عمر الأنطاكي (ت: ١٠٠٨هـ/١٥٩٩م) قامة إسلامية في مجال الصيدلة، يلقب بـ"الأنطاكي" نسبة لمسقط رأسه بمدينة "أنطاكية" جنوب تركيا. يعرف بـ"الرئيس الضرير"، وُلد كسيحًا ثم شفي من كساحه. طبيب اهتم بخصائص النباتات الطبية، حكيم، فلكي، أديب أتقن العربية إضافة إلى اللغة اليونانية. عاش بـ"أنطاكية" ونسب إليها، زار طلبًا للاستزادة بالعلم دمشق وبلادًا من الأناضول (تركيا) والقاهرة، استقر بها زمنًا طويلاً أيام الحكم العثماني، حيث عكف في البيمارستان المنصوري على دراسة وتأليف كتب الأعشاب والصيدلة، كما زار مكة واستقر بها إلى حين وفاته عام ١٠٠٨هـ.

يقول عنه "الزركلي" في "الأعلام": "كان عالمًا بالطب والأدب، ضريرًا،

hiragate.com

انتهت إليه رئاسة الأطباء في زمانه، ولد في أنطاكية، وحفظ القرآن وقرأ المنطق والرياضيات وشيئًا من الطبيعيات، ودرس اللغة اليونانية فأحكمها، كما كان قوي البديهة يُسأل عن الشيء من الفنون فيملي على السائل الكراسة والكراستين.. ولقد أُثِر عن داود الأنطاكي الجد والنشاط وعلو الهمة في طلب العلم.. من أبرز ما يلاحظ في شخصية الأنطاكي سعة أفقه العلمي، وغزارة المعلومات مع تمكنه فيما يكتب، ورسوخ قدم فيما يناقش من الموضوعات. كما كان شيخًا كريمًا ذا نزعة إنسانية، وحريصًا على مثاليات مهنة الطب".

اهتم داود الأنطاكي بدراسة العوامل النفسية وأثرها على صحة الأبدان. حظي بمكانة رفيعة في معظم مجالس العلم في زمنه، وخاصة في المدن التي زارها، وأطلق عليه اسم "الطبيب الضرير"؛ اعترافًا بعلمه وذكائه رغم فقدانه البصر الذي عوضه ببصيرة نافذة قلَّ من ينافسه بها. كما عرف بـ"الرئيس الضرير" حين انتهت إليه رئاسة الطب.

آثاره ومؤلفاته

صنف الأنطاكي في علوم عدة بلغت ستة وعشرين مؤلفًا، منها ثلاثة كتب في الفلك، وأربعة كتب في المنطق والكلام، وواحد في الأدب، وباقي مصنفاته في الطب والصيدلة، وأشهرها على الإطلاق هي "تذكرة".

١ – مؤلفاته في الصيدلة والطب: كتاب "تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب" يُعرف اختصارًا بـ"تذكرة الأنطاكي"، أكبر وأهم مؤلفات داود الأنطاكي وهو كتاب ضخم يشغل قرابة سبعمائة صفحة من القطع الكبير. وقد ظفر هذا الكتاب بشهرة واسعة في زمنه (القرن الحادي عشر) لم يظفر بها كتاب آخر في مجاله، وكان أساس الطب لدى العامة. وهو بالطبع الكتاب الذي سهل على العطارين المداواة في الأمراض البسيطة التي لا تتطلب خبرة طبية كبيرة.

والكتاب مرتب في مقدمة، وأربعة أبواب، وخاتمة، يشتمل على أبحاث هامة عن النباتات والأدوية المفردة والمركبة، ومنافعها ومقاديرها وطرق تحضيرها، وأبدى لها مراتب حسب حروف المعجم، بلغ عددها نحو ١٧٩٢ صنفًا.

ثم أتى على ذكر من سبقه من علماء اليونان والعلماء العرب، الذين صنفوا بهذا العلم، وما أغفلوه، وما زاد عليهم من معلومات وأقراباذينات.. وكان معتمدًا على كتاب "الحشائش" لـ"ديسقوريدس"، كما اعتمد على ابن البيطار وعلى كتابه "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية"، واستفاد من مؤلفات "الرازي"، و"ابن سينا" وغيرهم.

وقد ذكر فيه الأمراض المختلفة وأسبابها وأعراضها وطرق معالجتها، مع دراسة عميقة للأمراض العصبية والنفسية، وبسط خلالها بإسهاب العقاقير المنشطة والمهدئة والمخدرة ومشاهداته، ثم تحديد المقادير التي يتناولها المريض وأشكالها، وبين درجة سميتها وإمكانية التعود أو الإدمان على تناولها، وما تسببه من آثار جانبية لها.. ثم أتى على ذكر الأدوية المضادة للتسمم.

اتبع الأنطاكي منهجًا محددًا لتأليف الكتاب، ورتبه على عشر فقرات: فكان يذكر أسماء النباتات والعقاقير بلغات متعددة.. ثم يذكر الجيد منها والرديء ودرجة أثرها الدوائي، بالاعتماد على ماهيتها من حيث الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة.. ثم يذكر منافع كل عقار لكل عضو من أعضاء الجسم.. ثم يذكر مضاره وما يصلح منه ومقداره الدوائي، وإذا كان مفقودًا فيشير إلى دواء غيره يقوم بدلاً عنه. هذا إضافة إلى التنبيه إلى أمرين مهمين هما: الزمان الذي يكون فيه الدواء صالحًا (أي مدة صلاحية الدواء)، إلى جانب موطن النبات الطبي.

ومما هو جدير بالذكر، والذي يتحدث عنه الأنطاكي لأول مرة، هو "داء الأفرنجي" أو الحب الفرنجي"، ويصف كيفية معالجته بـ"الزئبق".. ويقول في الجزء الأول من مؤلَّفه

hiragate.com

"تذكرة" في الأبحاث التي تتعلق بطب الجلد ص ١٨٤:

"والزئبق بارد في الثانية، رطب في الثالثة، يُذهب الحكة والجرب والقروح التي في خارج البدن، وقد صح الآن منه أنه إذا مزج بالكندر والراتينج والشمع والزيت ودهن به النار الفارسية والحب المعروف بالفرنجي والقروح والأوكل، ودثر صاحبه أسبوعًا لم يأكل طعامًا رديئًا ولا مملوحًا بريء بعد فساد في الفم وريق يجري وورم في الحلق، وإن برد أحدث وجع المفاصل، وتجد الدهنة ثلاث مرات في الأسبوع، وهي مشهورة بمارستان مصر، وقد يقتصر فيها على دهن الأطراف والعنق ولا تستعمل إلا بعد التنقية".

وتحتوي "التذكرة" على معلومات طبية مستمدة من روح عصره، وبعض مجريات هذا العصر المتأخر في القرن الحادي عشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، بعضها لا تمت إلى العلم بصلة، ودائمًا هي مجريات خرافية، ذكرها وربما أنه لا يؤمن بها، ولكن ناس عصره يتجاوبون معها بفعل نفساني.

فقد كان الأنطاكي يهتم جدًّا بالعوامل النفسية التي تساعد الإنسان في الشفاء، ويرى أن الدواء النفسي يتلازم مع المعالجة الطبية ويتجاوب معها.

لم يتممه الرئيس الأنطاكي، فذيل عليه بعض تلاميذه بعنوان "ذيل على التذكرة"، طبع في جزأين بمصر عام ١٢٥٤هـ، كما طبع على هامش "النزهة المبهجة" في ثلاثة أجزاء عام ١٣٠٢هـ، كما طبع في بولاق بجزأين بعنوان "تذكرة داود للعلاج بالأعشاب والوسائل الطبيعية" بعناية سامي محمود، وصدر في بيروت سنة ١٩٥٢م بجزأين، وصدر كذلك في بيروت سنة ١٩٨٦م.

ولكتاب "تذكرة" ٣٧ نسخة خطية منتشرة في مكتبات الوطن العربي، والبلاد الأوروبية، والهند، والولايات المتحدة.

٢- مؤلفاته في الفلك: وهي ثلاثة: رسالة في الفلك، أنموذج من الفلك وذكره بروكلمان في كتابه "تاريخ الأدب العربي"، استدلالات بحركات النجوم وطوالعها أو الاختيارات.

٣- مؤلفاته في المنطق الكلام: زينة الطروس في أحكام العقل والنفوس، الأنولوطيقا الصغرى ونسخها

الخطية في مكتبة لاله لي باسطنبول برقم ٣٦٣٩، غاية المرام في تحرير المنطق والكلام، رسالة في الطير والعقاب ونسخها الخطية في مكتبة باريس الوطنية برقم ٢٦٢٥/٨، وثانية برقم ٣/٢٦٢٥ ذكرهما بروكلمان.

٤- رسالته في الأدب: وهي كتاب تزيين الأسواق في أخبار العشاق، وهو مختصر "أشواق العشاق" للبقاعي.

بعض الكتّاب يَعدّ الأنطاكي خاتمة عقد الأطباء المسلمين المحققين العظام، الذين كانوا أساتذة في علومهم وسلوكهم المهني، بل هو أحد أولئك الذين تركوا إرثًا علميًّا متنوعًا، يبقى برهانًا وشاهدًا على شمولية معلوماتهم وعمق معارفهم وسلامة مسلكهم، بل إن كتابه "تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب" هو موسوعة في الطب والصيدلة بلا منازع.

هذا وقد التزم الأنطاكي في ميدان الاستطباب بمضمون القاعدتين التاليتين:

الأولى هي "الزمن جزء من العلاج"، وهذا يعني أن مرور فترة من الزمن لسراية العلاج وتمام تأثيره، أمر لا بد من ملاحظته في ميادين التطبيب. وأما القاعدة الثانية هي معالجة كل مريض بنباتات أرضه وبلده.

وفي الختام نقول إن ترجمتنا لهذا الطبيب الصيدلي تأتي إجابة لبعض الذين يظنون أن الحضارة الإسلامية كانت طفرة مؤقتة ثم انقضت، والحق خلاف ذلك، فـ"الأنطاكي" كان في القرن السادس عشر الميلادي أي القرن العاشر الهجري. ■

(*) باحث في التراث العربي والإسلامي / مصر.

hiragate.com

المنحى العام

- حراء مجلة علمية ثقافية أدبية تعنى بقراءة الكون والإنسان والحياة من منظور قرآني حضاري إنساني.
- تهدف إلى بناء الإنسان المتوازن علميًّا وفكريًّا وسلوكيًّا.
- تسعى إلى أن تكون إضافة نوعية مفيدة في الساحة الثقافية شكلًا ومضمونًا.
- مجلة حراء ملتقى للفكر الإيجابي الحضاري البنّاء.
- تنطلق من رؤية حضارية تستمد طاقتها من ثراء الخبرة التاريخية للأمة الإسلامية والأسرة الإنسانية لمعالجة قضايا الواقع واستشراف آفاق المستقبل.
- تسعى إلى معالجة المعارف الإنسانية من منظور تآلفي بين العقل والقلب، والعلم والإيمان، والفرد والمجتمع، والروح والمادة، والنظري والتطبيقي، والمحلي والعالمي، والأصالة والمعاصرة.
- تحرص على الصحة في المعلومة، والإيجابية في الطرح، والعمق في التحليل، والإثارة في الكتابة، والحرية في التعبير مع احترام المقدسات والخصوصيات، والالتزام بالمبادئ الأخلاقية والقيم الإنسانية المشتركة، والإنصات إلى الآخر، والانفتاح على الحكمة الإنسانية حيثما كانت، والحوار البنّاء الذي يخدم الإنسان ويفيده؛ كما تحرص على الابتعاد عن الإقصاء والاستفزاز والإساءة والعنف والتطرف والسطحية والسلبية فيما تنشر.
- تهدف إلى الجمع بين عمق الفكرة، وجمالية الصياغة، وبساطة العبارة، ووضوح المعنى في أسلوب الكتابة.

معايير النشر

- أن تكون المادة المرسلة جديدة لم يسبق نشرها.
- ألا تتجاوز عدد الكلمات ٢٠٠٠ كلمة. وهيئة التحرير لها الحق في التصرف تلخيصًا واختصارًا.
- المادة المرسلة تخضع لتحكيم لجنة علمية استشارية، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء تعديلات على المادة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة تحتفظ بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وطبقًا للتوقيت الذي تراه مناسبًا.
- للمجلة الحق في أن تكتفي بنشر المادة المرسلة إليها في موقعها على الإنترنت دون استئذان كاتبها ما لم يؤكد الكاتب أثناء الإرسال رغبته في النشر في المجلة الورقية حصريًّا. علمًا بأن ما ينشر إلكترونيًّا لا يترتب عليه أي مكافأة مالية.
- المجلة تلتزم بإبلاغ الكتاب بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- للمجلة حق إعادة نشر المادة منفصلة أو ضمن مجموعة من المقالات بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى لغة أخرى دون استئذان صاحب المادة.
- المقالات المنشورة في مجلة حراء تعبر عن آراء كتابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.
- مجلة حراء ترجو كتابها الأكارم أن يرسلوا مع المادة نبذة مختصرة عن سيرتهم الذاتية مع صورة واضحة لهم.

ترسل جميع المشاركات إلى البريد الآتي: hiragate@yahoo.com

حراء
مجلة علمية ثقافية أدبية
www.hiragate.com

مجلة علمية ثقافية أدبية
تصدر كل شهرين عن دار الانبعاث للنشر والتوزيع

رئيس التحرير
هانئ رسلان

الإخراج الفني
نور الدين محمد صواش
محمد أشرف

منسق الاشتراكات
محمد علي
+201116793277
+201102122946

نوع النشر
مجلة دورية تصدر كل شهرين

الطباعة
دار الجمهورية للصحافة

رقم الإيداع
٢٤٢٦١

ISSN 2357-0229-69

EGYPT
٢٢ ج جنوب الأكاديمية، التجمع الخامس، القاهرة الجديدة، القاهرة.
اشتراك وتوزيع هاتف: +201102122946
hiragate@yahoo.com

IRAQ
Kani Irfan Publishing English Village N°9 / Erbil
Phone: +964 750 713 8000
hiragate@yahoo.com

NIGERIA
Nusret Educational And Cultural Co. Ltd.
Aguiyi Ironsi St. No: 77/B Maitama - Abuja
Phone: +2349030222525
hiragate@yahoo.com

USA
Tughra Books
345 Clifton Ave., Clifton, NJ, 07011, USA
Phone: +1 732 868 0210
Fax: +1 732 868 0211
hiragate@yahoo.com

اشتراك وتوزيع | hiragate@yahoo.com
Mobile: +2 01102122946 +2 01116793277

- بنقرة زر ادخل عالم حراء..
- اقرأ جميع أعداد المجلة..
- حمّلها إلى حاسوبك إذا أردت..
- اكتشف عالما من المعارف المتنوعة..
- مقالات، فيديوهات، مقالات مسموعة..
- بنقرة زر.. تذوق متعة المعرفة..

WWW.HIRAGATE.COM

مركز التوزيع: دار الانبعاث | daralinbiath@gmail.com | 00201023201002

@daralinbiath | @daralinbiath

تقلبات

لا تحسب الدنيا ستلبس دائمًا
ثوبَ الربيعِ بزهره البَرّاقْ
أو أنّ صفوَ الصيفِ يبقى عازفًا
لحنَ التصافي باسمَ الإشراقْ
ربَما تهيجُ بكَ العواصفُ فجأةً
تهوِي السماءُ بغيْمها الدفاقْ
ولَرُبّما بعد النضارةِ والنّدى
يقسو الخريفُ وتسقطُ الأوراقْ

***

ISSN 2357-0229
www.hiragate.com